
روح الجهاد
١٤٢٥
وحقيقته في الإسلام

ترجمة كتاب

İla-yı Kelimetullah veya Cihad

عن التركية



دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الخامسة: ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

DAR AL-NILE

Emniyet Mah. Huzur Sok. No: 5

34676 Üsküdar – İstanbul / Türkiye

Tel: +90 216 3186011 Faks: +90 216 3185220

مركز التوزيع / فرع القاهرة

العنوان: ٧ ش البرامكة – الحي السابع – مدينة نصر – القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٠٢٢٢٦٣١٥٥١+

المحمول: ٢٠١٦٥٥٢٣٠٨٨+

جمهورية مصر العربية

www.daralnile.com

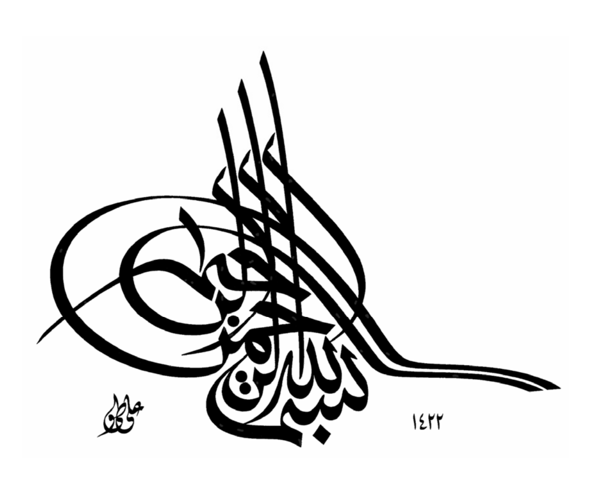


تأليف

محمد فتح الله كولن

ترجمة

إحسان قاسم الصالحي


بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٢٢

تقديم

إن الإسلام نظام إلهي شامل لجميع مرافق الحياة بمناهج متنوعة ترفد منابع الحياة وتزيدها عطاءً وخصباً، ويحتضن الإنسانية كافة بل الدنيا والعقبى. وأهم مراميه رفع الإنسان إلى ذروة الإنسانية وجعله إنسانا كاملا في أحسن تقويم. فإذا ما تصورنا مجتمعاً أفراده كاملون فإن الأمة الناشئة من مثل هؤلاء الأفراد سيبلغون مراتب من الكمال لا يجاريهم فيها ملائكة السماء، وينعمون بحياة النعيم ولّما يغادروا الدنيا بعد. ويمكن مشاهدة شرائح سعيدة محظوظة من المجتمعات بدءً من خير القرون إلى يومنا هذا كنماذج يمكن احتذاؤها.

ولكن لو أخذنا واقع حاضرنا أساساً للبحث سنواجه الحقيقة الآتية وهي أن الذين يظهرون كممثلين للإسلام وناشرين له لا يفهمونه حق الفهم ولا يبلّغونه حق التبليغ ولا يعيشونه في حياتهم في ضوء ما سبق بيانه أعلاه. فالنتيجة الطبيعية لهذا أن الإسلام على الرغم من أنه الدين الذي ارتضاه رب العالمين لا ينظر إليه غيرهم بالنظر نفسه.

وقد أفاضت الدراسات والبحوث حول الإسلام في تمحيص معانيه وأحكامه ومناهجه المتنوعة منذ العصور الأولى وإلى الآن بل حتى بمناقشته ومحاكمته، سواء في مستوى العلماء أو العوام. ومنها: "الجهاد في الإسلام". فالجهاد هو بذل الجهد والسعي. والمسلمون مكلفون بالجهاد بهذا المعنى رجالا ونساء شيباً وشباباً. وقد عُدَّ هذا الجهاد الذي يتغير شكله بمقتضى الشرائط التي تتطلبها الظروف، فرضاً في موضع وواجباً في آخر ومباحاً في غيره.

والجهاد نوعان كما ورد في الحديث النبوي الشريف. أحدهما الجهاد الذي يزاولـــه الإنسان مع نفسه والذي أطلق عليه "الجهاد الأكبر". والآخر جهاد الأعداء والذي أطلق عليه "الجهاد الأصغر"، وهذا النوع موضع نقاش في مستوى الفكر مع أعداء الإسلام منذ القدم. أي كيف يجوِّز هذا النظام الذي تعهد برفع الإنسان إلى أوج الكمال أن يقتل من لا يؤمن به، ويأسر النساء، ويهلك الحرث والنسل؟ وما شابه من الانتقادات..

والحال أنهم لو أمعنوا النظر وأنصفوا ومحّصوا أحداث التاريخ لرأوا كم هي ظالمة هذه الانتقادات ولعلموا حقاً أنه النظام الذي يأخذ بيد الإنسان إلى كمال الإنسانية بأقصر طريق وأنفذه.

إنه لحقيقة أن الإسلام منذ ظهوره وإلى الآن في صراع مع أعدائه، وحتى بالكفاح المسلح إذا اقتضى الأمر، فثَمَّ مقتول وثَمّ قاتل. ذلك لأنه كان في فترة انتشاره في شبه محاصرة من جميع الجهات. فمن الطبيعي جدا أن يحارب ليفك عن نفسه الحصار، فاضطر إلى الحرب والقتال من أجل أن يجد فرصة للتعبير عن نفسه.

كان الإسلام في خير القرون محاصراً من قبل اليهود والنصارى والمشركين كما كان مهدداً أيضا من قبل مشركي العرب وبيزنطة والساسانيين.

وكان التعصب الديني كما هو في الوقت الحاضر، وعدم ظهور النبي من بين اليهود والنصارى، وكذلك الخشية من ضياع الامتيازات المادية، وما شابهها من الأسباب.. كان سبباً لمعاداة الإسلام.

ومن جهة أخرى لم يكن وضع المجتمع الذي نشأ فيه الرسول ﷺ وضعاً يُغبط عليه قطعاً. فالتعصب القبلي والتعصب الأعمى لمعتقداهم ولو كانت باطلة، والحكم المسبق على الأشياء.. والمستوى الهابط للحياة الاجتماعية.. وتحريض اليهود.. فضلا عن صعاب لدى تنفيذ الأوامر الدينية.. والأعراب البدو الذين ظلوا معرضين عن الإسلام وخطرا كامنا عليه... كل ذلك يمثل

جزءً ضئيلاً من طوق العداء على الإسلام. وأغلب غزوات الرسول ﷺ كانت مع هؤلاء المشركين عبدة الأصنام.

أما البيزنطيون والساسانيون فإن مقاومتهم للإسلام سارت مع تمكين الإسلام لنفسه في الأرض وتزايد المنتسبين إليه يوما بعد يوم والتسارع في انتشاره. إذ من الطبيعي أن تعادي الإسلامَ عقليةٌ تتناول كل شيء بنظرة دنيوية محضة، وتتخذ المنافع المادية أساسا للحياة الدنيوية، لأن الإسلام يقلب دنياها رأساً على عقب في حاضرها ومستقبلها.

المسلمون سواء في خير القرون أو في السنين التي تلتها لم يظلموا أحداً قط في جهادهم مع أعدائهم. فلم يعتدوا على أحد.. ولم يهلكوا الحرث والنسل.. ولم يحرقوا ويدمروا القرى والمدن.. ولم يقتلوا أحدا غير المحاربين. وأبرز مثال على هذا أنه لم يتجاوز عدد القتلى من الطرفين أربعمائة شخص طوال ثلاث وعشرين سنة في حياة الرسول ﷺ المليئة بالجهاد كما يذكره الأستاذ محمد حميد الله في كتابه "غزوات الرسول ﷺ". ويمكن أن نورد نماذج كثيرة حتى من العصور التركية التي دامت تسعة قرون فضلا عن خير القرون.

أجل، إن الإسلام قد أذن بالكفاح المسلّح، ولكن اشترط لذلك عددا من الشروط منها:

آ. الدفاع عن المسلمين، دينهم وحياهم وأموالهم وذراريهم.

ب. صيانة حرية الفكر.

ج. الالتزام بالعهود والمواثيق.

د. ألاّ يُظلم المسلمون ولا الذين في ذمتهم.

زد على هذا فإن القرآن الكريم يصرح حتى في أحرج الظروف ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ﴾(الأنفال:٦١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾(البقرة:٢٠٨)؛ ويأذن بالقتال ضمن شـــروط معينة ليكون وسيلة للسلام العالمي.

ولكن مع الأسف إننا لم نستطع إفهام هذه الحقائق على نصاعتها للآخرين. فالحقائق التي ذكرناها نظريا هي أحداث عشناها منذ أربعة عشر قرنا من الزمان وغدت في ذمة التاريخ. ليتنا استطعنا أن نشرحها بأسلوب المؤرخ الحاذق القدير. ولكن هيهات... ولأجل توضيح المسائل التي ذكرناها والتي لم نذكرها تترتب مسؤوليات عظيمة على كاهل مفكري المسلمين. والكتاب الذي بين أيديكم "روح الجهاد وحقيقته في الإسلام" نأمل أن يملأ فراغا في هذا الموضوع.

"روح الجهاد وحقيقته في الإسلام" موضوع واسع يمكن البحث فيه من جوانب كثيرة كما ذكره المؤلف في فصل "المدخل". فلو حاولنا تناول جميع جوانبه بالبحث والتدقيق لاحتجنا إلى كثير من المجلدات، على الرغم من توفر الكثير من الكتب المؤلفة أو المترجمة في هذا الموضوع. ولهذا فكتاب "روح الجهاد وحقيقته في الإسلام" قد تناول الموضوع من جوانب معينة. وقد بين أستاذنا المحترم في "المدخل" هذا الأمر:

"إن الأصل في الإسلام هو السلم وليس الحرب، وأفضنا في بيان أن الأسباب الموجبة للحرب هي الدفاع، والحدّ من الظلم، وفتح باب حرية الإرشاد والتبليغ".

وهذا الكتاب يخاطب المسلمين المأمورين بالجهاد، فنجد الفصول الآتية: وظائف الجهاد، ما يكسبه الجهاد، معوقات الجهاد، وعشاق الجهاد الذين هم نماذج قدوة لجيلنا الحاضر تؤيد ما نقول. واعتقد أن القارئ الكريم هو الآخر سيحمل القناعة نفسها.

"روح الجهاد وحقيقته في الإسلام" ستة فصول.

ففي الفصل الأول: يتناول مفهوم الجهاد بالتحليل في ضوء الكتـــاب

والسنة. ويضع مفهوم "الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر" بعد البحث المستفيض فيهما، كلاًّ في موضعه اللائق به. ولا جرم فالحاجة ماسة إلى هذا الأمر. لأن هذين المفهومين يفهمان أحيانا فهماً مختلفاً جداً. ولدى التطبيق يؤدي إلى مزلّة أقدام. فمثلا: القول بأن الجهاد هو الجهاد الأكبر لا غير. هؤلاء يفهمون الجهاد أنه مجاهدة مع النفس الإنسانية فحسب، فتركوا جانب الدعوة في العالم الخارجي وانسحبوا إلى زاويتهم منشغلين بذكر الله وحده. في حين غيرهم تبنّوا الجهاد الأصغر وحده. فلم يروا الجهاد غير النضال مع الأعداء حتى بلغ بهم الأمر إلى إهمال العبادات المفروضة.

ولهذا لا يعدّ إسرافا في الكلام -إن شاء الله- مهما قيل حول مفهومي الجهادين الأصغر والأكبر، لأجل استيعابهما جيداً وتنفيذهما في الحياة الحاضرة وفق موازين خير القرون. وربما أعطي لهذا الموضوع مساحة أوسع في هذا الكتاب.

الفصل الثاني من الكتاب هو "وظائف الجهاد". فيبحث بحثا مستفيضا عن الجهات المختلفة للجهاد من الجانب الدنيوي. مثلا يبين أهمية الجهاد في "الجهاد منبع الحياة" ويقول: "نحن مذ تركنا الجهاد نمت فينا الفرق ونجمَ التخريب، وما نشاهده في الوقت الحاضر من التكتّلات والتخريبات والفرق ليست إلاّ ثماراً من حنظل وزقوم نمت من تلك البذور الجهنّمية التي نثرت في تلك الفترة. ولا خلاص من هذه الحالة المميتة إلاّ بالجهاد. فالجهاد للمؤمن أسمى غاية وأعلى مثل يمكنه أن يضحّي بنفسه من أجله..."

في الفصل الثالث "علاقة الجهاد —المؤمن– الكون" يبين أن أحد أسباب تكليف المؤمن بالجهاد هو الحاكمية على الأرض المؤسسة على الحق والحرية والعدالة. وتأسيس هذه الحاكمية على الأرض مسؤولية تخصّ المؤمنين. أو بتعبير آخر إن هذه الحاكمية المدّخرة في مخطط القدر الإلهي لا تتحقق إلا على أيدي المؤمنين. ولهذا فإن كل مؤمن يعتقد أن هذا التكليف واجب عليه

ووظيفة مناطة به، أي يجب إعمال الفكر فيها والعمل على تنفيذها في الحياة الواقعية. ففي هذا الفصل تركيز على هذا المفهوم وربطه أيضا بعصر النبي ﷺ بإيراد مثالين منه وهما أنس بن النضر والبراء بن مالك رضي الله عنهما.

وفي فصل "ما يكسبه الجهاد" يذكر بجنب مكتسبات الجهاد المهالك والمخاطر الناجمة عن عدم الإيفاء بهذه الوظيفة. وفيه كذلك -كما هو في الفصول الأخرى- إرشادات للمستشعرين بعظمة الدعوة إلى الله. ولا شك أن لهذه الإرشادات أهميتها القصوى ولاسيما إذا أخذت بنظر الاعتبار الفترة الزمنية التي قيلت فيها هذه الأقوال وطرحت هذه المباحث. تلك الفترة التي ضرب الإرهاب أطنابه في البلاد قبل سنة ١٩٨٠.

نعم في الوقت الذي كان الإرهاب يصول ويجول في البلاد، والبؤر الداخلية والخارجية تؤجج نار الفتنة، وعشرات من الشباب يقتلون يوميا، كان من العبث التحدث عن الأمان، أمان النفس والمال، وقد تعطلت التجارة حتى عجَز التجّار عن الذهاب إلى محالّهم باطمئنان، واضطروا إلى غلقها خوفاً من الأخطار. إنّ سعي أستاذنا المؤلف المحترم لإبلاغ هذه الإرشادات القيمة أو بث أنفاس الآمال المشرقة في هذه الفترة بالذات من منصة الوعظ في جامع "بُورْنُوَا" (بـازْمِير) ما هو إلاّ تعبير عن النية الخالصة لإقرار الأمن والنظام والسكينة في هذه البلاد.

"إن أي نوع من أنواع الإرهاب والفوضى حاليًّا أجنبي المنشأ بلا شك، فالأجانب يريدون أن يحوّلوا هذا الوطن الشبيه بالجنة إلى جحيم لا يطاق. فلا أسهل من إرغام دولة خارت قواها نتيجة الإرهاب والفوضى. وهذا ما يصبو إليه الأجانب. فهم يريدون أن تتحول هذه البلاد إلى مستعمرة يستغلونها. والإرهابيون والفوضويون جميعهم ما هم إلاّ عملاء أولئك المستعمرين. ولكن لن يصلوا إلى مبتغاهم -بإذن الله- وسيمحق الله مكرهم. وهنا أمْر مهم وهو أن الانشغال بالإرهابيين والفوضويين سيؤخرنا عن بلوغ ما نصبو إليه من هدف.

أليس هذا ما يريده أعداؤنا بالدرجة الثانية؟ إذ هم يخشون أن يصلب عود المسلمين يوماً من الأيام فيصبح الإرهابيون كالـــحُمُر المستنفرة تفرّ من قسورة.

وهنا أمر لا بد ألاّ يُنسى أبداً وهو: أن المسلم إذا اقتضى الأمر يكون مع قوى الجيش والأمن للدولة تجاه أي نوع من أنواع الاعتداءات الخارجية أو الداخلية. فهذا واجب عليه. ولا يمكن أن يتصور تركه لهذا الواجب. ويكفي أن تدعوه الدولة وتكلّفه بوظيفة كهذه. ولا شك أنه سيؤدي هذه الوظيفة المتممة لعمل الدولة، وبخلاف هذا فإن أيّة حركة فردية تؤدي حتماً إلى تهيئة إرهاب آخر. فعلى المؤمنين أن يكونوا على حيطة وحذر من هذا الأمر. إذ لا يملك الإرهاب والفوضى أي جانب شرعي، ولا بد أن تُجتث جذورهما."

وكذا مما يلفت النظر ما بسطه أستاذنا المحترم من توضيح لحديث شريف قاله الرسول الكريم ﷺ ورواه أبو داود في سننه ينطوي على دروس عظيمة مفيدة لنا في الحاضر على الرغم من مرور أربعة عشر قرناً عليه: "إذا تبايعْتم بالعينة وأخذتم أذناب البقَر ورضِيتم بالزّرع وترَكتم الجهادَ سلَّط اللهُ عليكم ذُلاًّ لا يَنـــزعُه حتى تَرْجِعوا إلى دِينـــكم".[1]

الفصل الخامس للكتاب "معوّقات الجهاد" قد خصص لبعض نواحي الضعف فينا كما هو واضح من العنوان. فهنا يلفت النظر إلى بعض المسائل الموجودة أو من المحتمل وجودها في كل إنسان متخذا فطرة الإنسان أساسا. فيذكر بعض مواضع الزلات التي تخص الفطرة الإنسانية، تلك الزلات التي من المحقق أو من المحتمل وقوعها. فمثلا: حب الراحة والدعة. ولا مراء فإن حب الراحة والدعة والانهماك في الحياة الدنيا فيروس خطر يقتل روح الجهاد.

وفي الحقيقة يمكن الإنسان أن يوجه هذه المشاعر في سبيل الدعوة المقدسة التي آمن بها وفي سبيل مرضاة الرب. وفي هذا يكون الظفر للدين أيضا. فيتناول الفصل هذين العائقين المهمين من زوايا نظر متنوعة ساردا أمثلة

---

(١) أبو داود، البيوع ٥٦؛ أحمد بن حنبل، المسند ٤٢/٢.

ونماذج من خير القرون لسبل تجاوزهما، منيرا آمالنا وشادّاً لعزائمنا وإرادتنا.

أما الفصل الأخير "من عشّاق الجهاد" فهو عرض لنماذج عملاقة ذاقوا لذة الجهاد وارتشفوا من رحيقه في كل لحظة من لحظات حياتهم، أولئك الصحابة الكرام، رموز فخرنا واعتزازنا وكرامتنا. وفي الحقيقة أنه يمكن أن يذكر الصحابة كلهم في هذا الفصل إذ إن أولئك العظام قد أمضوا حياتهم كلها في مرضاة ربهم، إلا أن ذلك غير ممكن فعلا في مثل هذا الكتاب كما لا يخفى. ولهذا انتقي عدد من الصحابة الكرام وموقفهم من الجهاد بعد ذكر شيء من جهاد الرسول العظيم ﷺ.

إن كتاب "روح الجهاد وحقيقته في الإسلام" كأمثاله من الكتب: "النور الخالد" و"القدر في ضوء الكتاب والسنة" لأستاذنا فتح الله كولن، هو جمع لمواعظه التي ألقاها على منصة الوعظ قبل سنة ١٩٨٠. فهذا الكتاب هو جزء من سلسلة المواعظ التي ألقاها أستاذنا المحترم في جامع "بُورْنُوَا" التابعة لمدينة "إزمير" حينما كان واعظا هناك. فهذا الكتاب ليس إلا ما يخص الجهاد من تلك المواعظ. سُجلت هذه المواعظ على أجهزة التسجيل أولاً ثم حولت إلى لغة الكتابة. وبعد إجراء التصحيح عليها من قبل الأستاذ نفسه نشرت في الصفحة الأكاديمية لجريدة "الزمان"، متسلسلة. وعندما تحول الأمر إلى كتاب وضعت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة بنصوصها العربية بعد تحقيق أصولها ومصادرها.

نترككم مع "روح الجهاد وحقيقته في الإسلام" وفي الوقت نفسه نقدم جزيل شكرنا وامتناننا لأستاذنا الفاضل داعين المولى القدير أن يمنحه دوام الصحة والعافية ليتحفنا بأمثال هذه المؤلفات البديعة. وكذا نشكر كل من ساعد وساهم في إخراج الكتاب على صورته القشيبة هذه.

أحمد قوروجان

١٩٩٦/٣/٢١- إسطنبول

المدخل

الجهاد بالمفهوم الذي يدركه الجميع هو النضال والكفاح في سبيل إعلاء كلمة الله. وقد وُجد هذا النضال منذ أن وُجد الإنسان نفسه على الأرض وسيمضي إلى أن يرث الله الأرضَ ومَنْ عليها، وما المخاصمة التي حدثت بين ابني آدم عليه السلام إلا أول مثال له.

الجهاد لغةً كلمة واسعة المعنى، تتسع باتساع الأحوال وعوارض الظروف لكل عصر، إذ قد يتحقق أحياناً بالتضحية بالغالي والنفيس من الأموال، ويبلغ أحياناً أخرى درجة الفداء بالنفس في هذه السبيل. ومن هذه الزاوية فإن تعريفه بأنه "قتال الأعداء" ما هو إلاّ تحديد وتقليص لمعناه الواسع الشامل.

ولقد كسب الجهاد في عصرنا الحاضر خواصاً متميزة، حيث تحولت دنيانا إلى ما يشبه القرية العالمية، وتوسعت فيها وسائل الاتصال والنقل توسعاً هائلاً قد لا يتصوره خيالنا، وقد أثر توازن القوى العالمية –إلى حد ما– بمعناه ومفهومه. لذا فلا شك أن شكل الجهاد سيكون أيضاً مختلفاً في هذا العصر. ولا يعني هذا تغيّر معنى الجهاد ولا مضمونه.

وقد أضاف بديع الزمان سعيد النورسي بُعداً آخر جديداً لمصطلح الجهاد وذلك بقوله: "الظهور على المدنيين المثقفين إنما هو بالإقناع وليس بالضغط والإجبار".[١] فإذا ما تصوّرنا سيطرة تيار الفلسفة الوضعية والمذهب العقلي حتى على العالم الإسلامي، فضلاً عن العالم الغربي، فإن تبليغ الإسلام بلا

---

(١) سيرة ذاتية لبديع الزمان سعيد النورسي، ص ٩٥.

شك إلى هؤلاء الناس سوف لا يكون ضمن ذلك المعنى الضيق للجهاد الذي ذكرناه آنفاً، أي "القتال"؛ إذ إن جهاد أولئك إنما يتحقق بإجراء مقارنة بين أسس النظم التي ارتضوها -الواحد تلو الآخر- مع أسس الإسلام. نعم إن جهادهم لا يتحقق إلاّ بهذا الأسلوب، أسلوب الإقناع.

والجهاد في الوقت نفسه -حتى الجهاد المادي- ليس فرضاً على الرجال دون النساء بل هو مسؤولية تقع على كل مؤمن مسلم حاز على شروط التكليف سواءً أكان رجلاً أم امرأة. فإذا ألقينا نظرة على الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة المتعلقة بالجهاد نشاهد هذه الحقيقة بوضوح، علماً أن نماذجها التطبيقية تملأ خير القرون وما أعقبته من قرون. وإذا ما أردنا مثالاً حياً لهذه الحقيقة من تاريخنا القريب، نجد المعارك التي دارت في أرجاء الأناضول وفي حرب جناق قلعة.. شاهدات على اشتراك الرجال والنساء معاً في الجهاد، بل حتى الشيوخ والأطفال حيث استنفر الجميع خفافاً وثقالاً في سبيل الله.

ولقد قُسّم الجهاد إلى قسمين في أحاديث الرسول الكريم ﷺ، وهما: الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر. وفي الحقيقة إن هذا التقسيم عبارة عن وجهين لحقيقة واحدة؛ إذ المقصود من الجهاد الأكبر هو عملية إعلاء الإنسان ورفعه إلى مستوى الإنسانية الحقة من حيث حياته القلبية والروحية. أي محاولة الإنسان مجاهدة جهاد نفسه على مدى حياته كلها، وفي كل جزء من جزئياتها، حتى في الأكل والشرب وفي الحل والترحال، ومقاومتها عن كل ما لا يرضى عنه الله جل وعلا.

أما الجهاد الأصغر فهو جهاد الإنسان بماله ونفسه في سبيل الله حفاظاً على مقدساته، وإذا اقتضى الأمر قتال الأعداء وجهاً بوجه.

فحسب هذا المفهوم الشامل للجهاد، فإن الجهاد الأكبر هو الطريق الذي يسلكه الإنسان طوال حياته، أينما كان وكيفما كان وفي أي ظرف كان،

بينما الجهاد الأصغر هو مزاولة الإنسان له إذا اقتضت الظروف، ويكون في أوقات معينة وبين حين وآخر.

وفي الحقيقة إن الشرط الأساس لتحقق الجهاد الأصغر له علاقة قوية أيضاً بما يحققه المجاهدون من الجهاد الأكبر في أنفسهم وما التزموا به برغبة وإصرار. نعم إنه لا يمكن أن يذوق النصر إنسان لا يعيش في نفسه تلك الحقائق التي ينافح ويذبّ عنها في كل ميدان يخوضه. لذا ينبغي لأبطال الجهاد أن يحققوا الجهاد في أنفسهم أولاً ويظلوا معها في جهاد مستديم حتى يكونوا أخرويين يسيحون في منازل الآخرة وهم ما زالوا في هذه الدنيا. ومن بعد ذلك عليهم أن يسعوا لإسعاف القلوب الظمأى إلى الحق والحقيقة.

ولو ألقينا نظرة فاحصة على صفحات التاريخ نجد أن الذين أوفوا التبليغ والإرشاد حق الوفاء، سلكوا جميعاً هذا المسلك. فابتداءً من الأنبياء عليهم السلام إلى الأصفياء والأولياء، أو بتعبير أوضح ابتداءً من سيدنا الرسول الكريم ﷺ إلى الإمام الرباني والشيخ الكيلاني ومولانا خالد وبديع الزمان سعيد النورسي رحمهم الله، سلك جميعهم هذا المسلك. لذا منح الله ﷻ كلامهم قوة وتأثيراً، بناء على إخلاصهم لله وصدقهم معه، حتى جعلهم يحيون -منذ عصورهم إلى الآن- بآثارهم الطيبة وذكرياتهم الجميلة، وشرح الله صدور المؤمنين لهم. وكأنه خلّدهم بسجل حسناتهم.

وللجهاد جهة أخرى تضم المجتمع بأكمله وتحتضنه، وهو جانب مهم جداً، إذ الإنسان جزء من المجتمع الذي يعيش فيه والمجتمع بدوره يتألف من الأفراد. فالمجتمع الذي يهدف كل فرد فيه إلى جهاد نفسه أولاً لدى أدائه فريضة الجهاد، لهو مجتمع متماسك مترابط، تنسد أبوابه أمام عوارض الزمن ونوائب الدهور، حيث أتم كل فرد فيه مهمته وأعدّ عدته المادية والمعنوية، فلا يمكن أن يصدّهم شيء عمّا يسيرون إليه من المقاصد والأهداف.

ولا يخلو مجتمع أو أمة -في أي عصر من العصور- ممن هم بحاجة ماسة إلى الإرشاد والتبليغ. لذا فالمؤمنون الذين يعيشون مع هؤلاء الذين يجوبون في وديان الضلالة ويبحثون عن طريق للخلاص ويضيّعون حياتهم في سبيل العدم، مضطرون إلى أداء فريضة الجهاد مع هؤلاء الذين يشاركونهم العيش في سفينة الحياة الواحدة. فهذا فرض في أعناقهم من حيث كونهم بشراً. ومن جهة أخرى فهو فرض ألقاه الله عليهم وكتبه لهم. فكل إنسان مكلف بأداء هذه الفريضة ضمن إطار موضعه وموقعه وأحواله، وحسب إمكاناته وطاقته. وبخلافه يكون حسابه عسيراً يوم الحشر الأكبر.

إن أمماً كثيرة جداً لا يتحملون -على أية حال- دور الإسلام المسيطر في العالم، والذي تحقق عبر التاريخ في عهد الأمويين والعباسيين وأخيراً العثمانيين، فهؤلاء يغمضون أعينهم عن الحقيقة، لذا من العبث توقع صدور فكر آخر منهم غير هذا النمط. وكما هو واضح أيضاً -في أيامنا الحاضرة- أن أعداء الإسلام ما زال عداؤهم على شدته وعنفه رغم مرور العصور، فتراهم يسلكون مسلكاً ذا وجهين محمّلين بكل السلبيات على الإسلام. وينشر الغرب ما لا يعد ولا يحصى من الكتب ويسخّر الأقلام لأجل بث هذا الفكر الغربي إلى العالم أجمع وحمل الناس على التصديق به، متخذين في اعتبارهم أن القضية هي قضية الإسلام والنصرانية ، ولم يغيروا سياستهم هذه على مدى العصور. فالمسلمون في نظرهم وُحوش ضارية، وسفاحون قتلة وجناة سفلة... وكم هو مؤلم أن في عالمنا نحن، من المثقفين على الرغم من قلتهم مَن يعتقد بهذه الفرية.

هذا وقد تناولنا هذا المفهوم الشامل للجهاد في كتابنا "النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية" وبشكل مفصل مع سرد الأمثلة الكثيرة من عصر النبوة وإيراد الأجوبة على ما يبثه الغرب من اعتراضات على الجهاد. لذا لا نرى داعياً للتطرق إلى ذلك الموضوع مرة أخرى. نعم، لقد وضحنا في ذلك الكتاب أن الأصل في الإسلام هو السلم وليس الحرب، وأفضنا في بيان أن

الأسباب الموجبة للحرب هي الدفاع، والحدّ من الظلم، وفتح باب حرية الإرشاد والتبليغ. فمن شاء فليراجع ذلك الكتاب.

لم يبق مفهوم الجهاد في الإسلام منذ فجر الدعوة حتى يومنا الحاضر على حالة نظرية بحتة، بل ظهر في كل عصر من العصور من يحوّله إلى عمل في الحياة، وعلى أفضل وجه. ومن الجدير بالذكر أن الذين تم على أيديهم النصر -نصراً تاماً أو غير تـــام- أصبحوا في أحيان أخرى مغلوبين على أمرهم. ولكن يتميز الصحابة الكرام -من بين ممثلي كل العصور- بأنهم دائماً في الذروة لا يرقى أحد إلى مقامهم الرفيع. فالمؤمنون الذين اتخذوا الصحابة الكرام قدوتهم -كما أمر به الرســـول ﷺ- قد ساروا في الدرب الذي ساروا فيه. وسيحظون بالحشر معهم يوم القيامة بإذن الله.

ونحن في هذا الكتاب، حاولنا -كما سيتبين- سرد أجمل الأمثلة للجوانب العملية لمفهوم الجهاد في الإسلام.

أما حكم الجهاد -وفق القواعد الإسلامية- فهو يختلف حسب الظروف المحيطة. فإن كان اسم الله مَنسياً في موضع ما، وأوامره ونواهيه يضرب بها عرض الحائط، فالجهاد في ذلك الموضع فرض عين على كل مؤمن، بل هو أفضل الفرائض وأوجبها، ولاسيما إن كان ذلك المجتمع أسير ذلك المفهوم بمؤسساته ومنظماته. ولا يكون الجهاد فرض كفاية إلاّ إذا أدّت مؤسسات ومنظمات -في جبهة الإيمان- وظيفتها وبصورة منتظمة منسقة.

والآن يمكننا أن نمضي في فصول الكتاب بدءً بمعنى الجهاد لغةً واصطلاحاً، ثم تعريفه، ومضمونه بجمل قصيرة موجزة.

الفصل الأول

حَولَ مَفهُومِ الْجِهَاد

١. ما الجهاد ؟

الجهاد: كلمة مشتقة من جذر: (ج - هـ - د)، وهي تعني بذْل الوسع. والكلمة تحمل معنى آخر وهو بذل الإنسان كل ما في وسعه وطاقته وتحمّله المشاقّ في سبيل الوصول إلى هدف معلوم. وهذا التعريف أقرب إلى معنى الجهاد في معناه الشرعي.

إن مفهوم الجهاد قد كسب ميزة أخرى بظهور الإسلام، إذ صار عَلَماً على تحقيق إيصال الإنسان إلى الله ﷻ بإزالـــة العوائق بينه وبين الله تعالى. وحيثما يُذكر الجهاد في الوقت الحاضر يرد هذا المعنى على البال.

إن الجهاد في سبيل الله يجري في جبهتين اثنتين: الأولى، موجهة إلى الداخل. والأخرى موجهة إلى الخارج. ويمكننا أن نعرّف كلاًّ من الجهادَيْن بالآتي: إن بذل الجهد إلى الداخل عبارة عن عملية إيصال الإنسان إلى ذاته وإلى ربّه. أما الجهاد الآخر الموجه إلى الخارج فهو عملية إيصال الآخرين إلى ذواتهم وإلى ربّهم. ويطلق على الأول "الجهاد الأكبر" وعلى الثاني "الجهاد الأصغر". حيث إن الإنسان بالأول يبلغ معرفة نفسه بعد اجتيازه العقبات بينه وبين نفسه حتى يبلغ معرفة الله ومحبة الله والذوق الروحاني. أما بالثاني فتتحقق بإزالة الموانع بين الإنسان والإيمان بالله سواء بالنضال أو القتال، لإيصاله إلى الله تعالى ومن ثم التعرّف عليه والعروج في معرفته.

والجهاد من زاوية أخرى هو غاية خلق الإنسان، فلا مهمة على الأرض أفضل من الجهاد. إذ لو كان الأمر خلاف هذا لَما كان الله سبحانه يرسل

أنبياءه بتلك الوظيفة. فجميع الأنبياء والأصفياء منذ آدم عليهم السلام قد بلغوا -بصورة عامة - مرتبة الاصطفاء والإجتباء إمّا تحت ظلال السيوف أو بمحاسبة النفس.

ومن هنا فالبون شاسع بين القاعدين عن الجهاد بغير عذر وبين المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، لا يسدّه أيّ عمل كان غير الجهاد. والآية الكريمة الآتية توضح ذلك:

﴿لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾(النساء:٩٥).

والرسول الكريم ﷺ يبيّن أهمية الجهاد بالآتي:

"لَوَدِدتُ أنّي أُقتَلُ في سبيل الله ثم أُحيا ثم أُقتل ثم أُحيا ثم أُقتل".[١]

والله أعلم كم كان الرسول ﷺ يكرر: "ثم أُقتل ثم أُحيا" إن لم يخش الإطالة في الكلام، إذ المقصود من هذا التعبير هو الاستشهاد في سبيل الله بغير حصر. والذي يدعو إلى التأمل، أن هذه الرغبة والأمنية تصدر من سيد المرسلين وإمام الأنبياء ﷺ الذي يقول أيضاً:

"رِباطُ يَوم في سبيل الله خَيرٌ من الدنيا وما عليها ومَوضِعُ سَوْطِ أحدكم من الجنة خَيرٌ من الدنيا وما عليها والرَّوْحَةُ يَروحُها العَبْدُ في سبيلِ اللهَ أو الغَدْوَةُ خَيرٌ من الدنيا وما عليها".[٢]

---

(١) مسلم، الإمارة ١٠٣-١٠٦؛ البخاري، الإيمان ٢٦؛ النسائي، الجهاد ٣٠؛ ابن ماجه، الجهاد ١.

(٢) البخاري، الجهاد ٧٣؛ أحمد بن حنبل، المسند ٥/٣٣٩.

٢. الجهاد أمر إلهي

إذا أردنا أن نوجز الجهاد كأمر إلهي عبْر سيره التاريخي متمثلاً بسِيرة الصحابة الكرام الذين خوطبوا به لأول مرة نقول:

إن الأحداث تبين أن الظروف المحيطة بالمسلمين في مكة المكرمة بلغت حدًّا لا يطاق، حتى نفدت طاقة بعضهم فأُمروا بالهجرة.[١] بمعنى أن جهاد هؤلاء -في هذا الظرف- هو الهجرة. وفي الحقيقة أنه بعد مدة -كما سنرى- ستكون الهجرة هي الجهاد بعينه. وسيؤمر كل من أراد البيعة بالهجرة كشرط أولي.

ولقد هاجر المسلمون جميعهم إلى المدينة بعد هجرتي الحبشة.[٢] وبهذا أخذ الجهاد نمطاً آخر في العهد المدنيّ، إذ أرسيت أسس الدولة الإسلامية. فينبغي الجهاد إذن وفق الظروف ووقتها. ولا اختلاف في ماهية الجهاد وكيفيته، وإنما الأمر في كيفية تقويم الأمور حسب الأوضاع والظروف في حالها. والمهمّ الحفاظ على قابلية المناورة بجديتها وجدّها، مما كان يتطلب السرعة أحياناً والبطء والهدوء أخرى، بل التوقف أحياناً وغاية السرعة أخرى. وكل ذلك يعدّ من جوانب استراتيجية الجهاد. ومن الطبيعي جدًّا اتخاذ أوضاع متباينة وفق اختلاف أحداث الزمان.

قبل الإذن بالجهاد لم يحرك المسلمون ساكناً ولم يردّوا بالمثل قط على الاعتداءات والتجاوزات على حقوقهم، أي إنهم قاوموا مقاومة سلبية، بل حتى لم يفكروا بالمقابلة المادية، وكان الباغي دائماً جبهة الكفر، والمسلمون في وضع المظلومين والمهضومي الحقوق. واستمر الوضع على هذا المنوال مدة

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير، ٦٤/٢.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير، ١٦٧/٢.

بعد الهجرة، وأخيراً أُذن للجناح الآخر بالجهاد ونـــزلت الآية الكريمة الآتية:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحج:٣٩-٤٠).

فالذين مُنعوا من استعمال السيف أصبح يؤذن لهم بالتسلح. فاندفعوا بحماس إلى إنفاذ الأمر، إذ كانوا يترقبون بنفاد صبر الموضع الملائم لاستعمال هذا الإذن.

وبعد مدة أصبح الجهاد ليس إذناً فحسب بل أمراً إلهيًّا. وأصبح المسلمون بعد ذلك مضطرين إلى الجهاد المادي بسيوفهم، حتى إنهم عندما خرجوا إلى بدر كانوا يرفلون بالفرح والسرور وكأنهم ينادَون من الجنة. فهان عليهم ذهاب أموالهم وأنفسهم. نعم كانوا جميعاً ينتظرون الشهادة بلهفة وشوق عارم، ولهذا لم يتخلف أحدٌ منهم دُعي إلى الجهاد قطّ، إلاّ المنافقين الذين يبثّون روح الفساد في صفوف المجاهدين، فكثيراً ما تركوا الجبهة وفارقوا الجماعة وتركوا الرسول الكريم ﷺ وتباطأوا عن الجهاد في أشد الأوقات حراجة. فهؤلاء لم تعرف دواخلهم صفاء الإيمان، ولم يغلبوا النفاق في عالم ضمائرهم ووجدانهم، حيث انهمكوا بحظوظهم الشخصية وانعزلوا عن رفقائهم المجاهدين في خط النار في ساحة الوغى. حقًّا إنهم ذَوو أرواح سافلة وأُسَراء النفس والهوى.

أما المؤمنون بالله ورسوله ﷺ إيماناً باشَر قلوبهم وأرواحهم، فلم يترك أحد منهم قط موضعه، أي لم يتراجع أحد بُلّغ بالجهاد عن مرضاة الله، وأصبح من الواصلين إلى الله. فالذين قعدوا وتخلفوا هم الحائرون المتردّدون الذين لم يدركوا الحقيقة حق إدراكها ولم تباشر أرواحهم وضمائرهم.

نعم، إن المؤمن المجاهد بشَر كأي بشر آخر، يمكن أن يَكره الموت كما يذكّرنا القرآن بهذا الشعور: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة:٢١٦). ولكن على الرغم من أن هذا مغروز في فطرة الإنسان فإن الصحب الكرام رضوان الله عليهم أجمعين انقادوا إلى أمر الرسول ﷺ دون قيدٍ أو شرط وسلّموا أمرهم إليه بغير حرج في صدورهم. ولهذا تنــــزلت عليهم الألطاف الربانية تترى، لصفاء طاعتهم وقوة انقيادهم. وهكذا تعاقبت الإنتصارات الواحدة تلو الأخرى. فازدادت قوة المسلمين يوماً بعد يوم، وكانت بشارات النصر تنتشر بسرعة في القبائل. فمثلما يفرح المسلمون بها يحزن بها الكفار.

٣. أنواع الجهاد

آ. الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر

الجهاد الأصغر ليس هو شكل الجهاد الذي يؤدَّى في جبهة القتال فحسب، فهذا النمط من الفهم يقلّص أُفق الجهاد، حيث إن مَيدان الجهاد واسع جداً يمتد من الشرق إلى الغرب، وعلى سعته وشموله قد يكون كلمة واحدة أو سكوتاً وصمتاً أو تبسّماً وطلاقة وجه أو امتعاضاً ونفورا أو تركاً لمجلس أو مشاركة فيه.. وباختصار هو القيام بأي عمل من الأعمال لوجه الله، وتقويم الحب في الله والبغض لله في هذا السبيل... ومن هنا فإن كل جهد يبذل لإصلاح المجتمع في أي ميدان كان من ميادين الحياة ولأي شريحة من شرائح المجتمع. كل ذلك هو من مضمون الجهاد الإسلامي. بمعنى أن ما يُؤَدَّى في ميدان العائلة والأقارب القريبين والبعيدين والجار ذي الجنب والصاحب بالجنب، كل ذلك هو من الجهاد الأصغر. فهي كدوائر متداخلة واسعة سعة الأرض كلها.

نعم، إن الجهاد الأصغر في معنى من معانيه جهاد مادي. أما الجهاد الأكبر الذي يشكل الجانب المعنوي من الجهاد فهو جهاد الإنسان لنفسه وعالمه الداخلي. فمتى ما أُوفي حق هذين الجهادين معاً فقد تأسس التوازن المطلوب. وبخلافه، أي إذا ما نقص أحد هذين الجهادين اختلت الموازنة الموجودة في روح الجهاد.

فالمؤمن هو الإنسان الذي يجد هدف حياته ضمن هذه الموازنة في أدائه الجهاد، ويدرك أنه متى ما ترك الجهاد فُقدت الحياة. نعم، المؤمن كالشجرة المثمرة تحتفظ بحيويتها طالما تثمر، وإذا انقطعت عن الإثمار يبست وفنيت.

إذا شئتم أمعنوا النظر في وجوه جميع المتشائمين، تجدوهم قد تركوا الجهاد، فقطع المولى الكريم عنهم فيوضاته لأنهم لا يبلّغون الحق والحقيقة إلى غيرهم. فأظلم عالمهم الداخلي وغدَا قاسياً جاسياً. وانظروا إلى المجاهدين تجدوهم في نشوة وحبور دائمين وعالمهم الداخلي مملوء بالنور ومشاعرهم نابضة بالحيوية والرقة، لما يسعون إليه من تحويل الفرد الواحد إلى الألف. نعم إن كل جهاد يولّد لديهم جهاداً آخر، وكل خير يكون وسيلة لخير آخر، لذا فهم يجولون ويصولون في الخيرات. والآية الكريمة تخاطب وجداننا بهذه الحقيقة:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللّٰهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت:٦٩).

ب. الطرق المؤدية إلى الله

الطرق المؤدية إلى الله مختلفة ومتنوعة وهي بعدد أنفاس المخلوقات. ولا ريب أنه ﷻ يهدي الذين يجاهدون في سبيله إلى إحدى هذه الطرق أو إلى عدد منها، فيضع سبل الخير كلها أمامهم ويحفظهم عن طرق الشر.

إن طريق الله سبحانه هو الصراط المستقيم، فمن وجده فقد وجد الصراط السوي الوسط. نعم، فكما أن الصراط المستقيم هو الوسط بين الإفراط والتفريط في القوة الغضبية والعقلية والشهوية، كذلك هو الوسط في الجهاد والعبادة، حيث يأخذ المؤمن الوسط دائماً. أي أن الله سبحانه يهدي الإنسان إلى صراطه السوي الوسط.

إن الجهاد الموجّه إلى الخارج مهما بلغت فيه التضحية والفداء فإنه بمجموعه يعدّ ضمن الجهاد الأصغر، وكونه جهاداً أصغر إنما هو بالنسبة للجهاد الأكبر، وإلاّ فليس فيه جهة صغيرة قطّ. بل العكس هو الصحيح لأن

ما يُكسبه من نتيجة هي عظيمة للغاية، وكيف لا تكون عظيمة وهي ترشح المجاهد للدخول إلى الجنة، وإذا ما استشهد فله الحياة الكاملة في البرزخ. ولا شك أن المقصود هو نَيل رضى الله في ختام الجهادَين. وكيف يكون صغيراً جهاد له هذه النتائج الجليلة؟

فالجهاد الأصغر إذن هو تنفيذ أوامر الدين عملياً وأداء ما كُلّف به الإنسان. أما الجهاد الأكبر فهو إعلان الحرب على جميع العقبات والعوائق الكامنة في النفس الإنسانية التي تعيقه عن الكمالات من حقد وحسد وأنانية وغرور وكبر وفخر وأمثالها من الأمور التي جبلت عليها النفس الأمارة بالسوء. فهذا الجهاد عسير وشاق ولهذا سمّي بالجهاد الأكبر.

إن دوَران الحياة في فلك الأنانية خطر جسيم، والإنسان طالما هو في حومة الجهاد المادي لا يجد فرصة -في اغلب الأحيان- للإنصات إلى مطاليب نفسه، فيكون قد تجاوز هذه الخطورة، ولكن ما إن يُترَك الجهاد المادّي حتى تشرئب النفس بعنقها وعندها يداهم الخطر صاحبها حيث يعني هذا ضمور حياته القلبية والروحية.

فالشخص المعرّض لمثل هذا الموقف تحيط به الأفكار الفاسدة من جهاته الأربع وتتعرض حياته المعنوية إلى الشلل. ولهذا يصبح من الصعوبة بمكان أن يحافظ الإنسان على نفسه من دون القيام بالجهاد المادي. لذلك فإن أصعب المصاعب هو ما أشار إليه الرسول ﷺ عند رجوعه من إحدى الغزوات حيث قال: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر".[١]

والحديث الشريف يعني: أننا آمنا وشرُفنا بالجهاد والاشتراك في الغزوات، وربما غنمنا بعض الغنائم.. وبعد ذلك ربما يسري إلى نفوسنا حب الدعة والراحة والارتخاء بل ربما يراود بعضنا الشعور بشيء من الإعجاب، فيتسرب من نفوسنا الأمارة -بطرق شتّى- إلى أرواحنا ويفسدها. بمعنى أن مخاطر

---

(١) تاريخ بغداد للبغدادي، ٥٢٣/١٣؛ كشف الخفاء للعجلوني، ٤٢٤/١ — ٤٢٥.

مهلكة كثيرة تنتظرنا بعد الجهاد المادّي. فالنضال الذي سنخوضه بعد ذلك هو أصعب وأكثر جدية، فلا بد إذن من الاحتفاظ بحالة الحذَر الدائم والاستعداد المستديم.

فالمخاطب بهذا الحديث الشريف، فضلاً عن الصحابة الكرام، هم الذين يأتون من بعدهم، ونحن منهم بالذات. ولهذا ينبغي أن نظل حذرين جدًّا في استعمال هذا الميزان. فإن كان الإنسان يوجه حركاته في الجهاد إلى الخارج وحده بعيداً عن مراقبة النفس، فهذا يعني أنه على شفا جرف من الخطر الجسيم.

ج. ما يخصه ﷺ

كان أناسي خير القرون –عصر النبوة– كالأُسد في الوغى، ولكن ما إن يرخى الليل سدوله حتى تراهم كالرُّهبان المتبتّلين يقيمون الليل كله في عبادة وذكر وتسبيح إلى الفجر، وكأنهم كانوا فارغين في النهار وليسوا أولئك المجاهدين الذين اقتحموا المهالك، بل زهّاداً منقطعين للعبادة وحدها..

نعم هكذا شاهدوا الأمر من رائدهم ومرشدهم ونبيهم الكريم ﷺ. ولنعرض هنا بضعة نماذج:

كان رسولنا الكريم ﷺ أنموذجاً ومثالاً للشجاعة فيَروي سيدنا علي رضي الله عنه وهو البطل الشجاع ويقول: "..كُنّا إذا احْمَرَّ البَأْسُ ولَقيَ القَومُ القَومَ اتّقَينا برسول الله ﷺ فما يكون منّا أحدٌ أَدنى من القَوم منه".[1]

ومثلاً في غزوة حنين "..طَفِقَ رسولُ الله ﷺ يَرْكُض بَغلَتَه قِبَلَ الكُفّار قال عبّاسٌ وأنا آخذٌ بلجام بَغلة رسول الله ﷺ أَكُفُّها إرادةَ أنْ لاَ تُسْرِعَ... وأبو سفيانَ بنُ الحارثِ بنِ عبدِ المطّلب يقُودُ به فنـــزل فاستَنْصر وقال:

أنا النّبيُّ لا كذِبْ أنا ابنُ عبدِ الـــمُطَّلب.."[1]

(١) أحمد بن حنبل، المسند ١٥٦/١؛ مسند أبي يعلى، ٢٥٨/١.

فهذا المثال الرائع ﷺ والأنموذج الكامل للشجاعة والإقدام والبطولة، كان في عباداته كذلك في منتهى العبودية حتى يُسمع في صدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء[٢] ويدفع مَن حوله إلى رقّة القلب كلما سكب الدموع،[٣] وكان يصوم أياماً حتى يقال إنه لا يفطر[٤] بل كان يصوم حتى صوم الوصال،[٥] وكان يقيم الليل كله أحياناً حتى تتورم قدماه. "عن عائشةَ رضي الله عنها أنّ نبيَّ الله ﷺ كان يقومُ من الليل حتّى تتَفطّرَ قَدَماه، فقالتْ عائشةُ: لِمَ تَصْنعُ هذا يا رسولَ الله وقد غفَر اللهُ لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ قال: أفلا أُحِبُّ أنْ أكون عبدا شَكورا!".[٦]

وفي أثناء وجوده في غار ثور من دون مبالاة بما يخفيه من حيّات وهوام، وقد بلغ المشركون باب الغار، فجزع أبو بكر رضي الله عنه خشية أن يطّلع عليهم أحد. فقال له رسول الله ﷺ في منتهى الاطمئنان والسكينة: "يا أبا بكرٍ ما ظنُّك باثنَين اللهُ ثالثُهما.. لا تَحزَن إنّ الله معنا".[٧]

فهذا الإنسان الذي لا يعرف الخَوف قطعاً عندما يسمع القرآن يرق قلبه حتى تنهمر الدموع منه وتكاد تتقطع أنفاسه. "عن عبد الله بنِ مسعود قال: قال لِي النّبي ﷺ: اقْرَأْ عليَّ. قلتُ: يا رسول الله آقْرَأُ عليك وعليك أُنْزل؟ قال: نعم. فقرأتُ سورةَ النّساءِ حتّى أتَيتُ إلى هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّة بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا﴾ قال: حسْبُك الآنَ. فالتفَتُّ إليه فإذا عَيناه تَذرِفان".[٨]

---

(١) البخاري، الجهاد ٥٢؛ مسلم، الجهاد ٧٨-٨٠؛ الترمذي، الجهاد ١٥.

(٢) انظر: أحمد بن حنبل، المسند ٢٥/٤؛ النسائي، السهو ١٨؛ ابن ماجه، المقدمة ٣.

(٣) انظر: مسلم، الجنائز ١٢؛ أبو داود، الجنائز ٧٧.

(٤) انظر: أحمد بن حنبل، المسند ١٢٤/٣.

(٥) انظر: البخاري، التمني ١٩؛ مسلم، الصيام ٦٠.

(٦) البخاري، التهجد ٦؛ مسلم، المنافقون ٧٩-٨١؛ الترمذي، الصلاة ١٨٧.

(٧) مسلم، فضائل الصحابة ١؛ الترمذي، تفسير سورة التوبة (٩) ١؛ أحمد بن حنبل، المسند ٤/١.

(٨) البخاري، تفسير سورة النساء (٤) ٩؛ المسند للإمام أحمد، ٤٣٣/١؛ دلائل النبوة للبيهقي، ٢٣١/١٠.

إنه إنسان القلب الحيّ والضمير اليقظ، وهو السابق الأول دوْماً في الجهاد المادي والجهاد المعنوي. فحينما يحث أمته على الاستغفار يكون هو في المقدمة ويقول: "واللهِ إنّي لأَستغفرُ اللهَ وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرّةً"(١) ألا ما أعظَم هذا الكلام في حثّه على التأمل والتدبر.

إن الذي ظفر في الجهاد الأكبر يمكن أن يُنظر إلى أن جهاده الأصغر –على الأغلب– محقق ظفره فيه، بينما لم يُشاهد أحد خسر في الجهاد الأكبر وظفر في الجهاد الأصغر إلا نادراً جداً. فهؤلاء لا يبلغون النتيجة وإن أمكنهم قَطع بعض المسافة إليها.

"عن ابن عمر –يخاطب أمنا عائشة رضي الله عنهما–: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ. فبكت وقالت: كلّ أمره كان عجباً، أتاني في ليلتي حتى مسّ جلده جلدي، ثم قال: ذريني أَتَعبَّدْ لربي [ألا ما ألطفه ﷺ يستأذن زوجته ليتعبّد ربه]. قالت: فقلت: والله إني لأحب قُربَكَ وإني أحب أن تعبد لربك. فقام إلى القربة فتوضأ و لم يكثر صب الماء. ثم قام يصلي، فبكى حتى بلّ لحيته، ثم سجد فبكى حتى بلّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح. قالت: فقال: يا رسول الله ما يبكيك؟ وقد غفر الله لك ذنبك ما تقدم وما تأخر. فقال: ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أُنـــزل عليّ في هذه الليلة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾(آل عمران:١٩٠) ثم قال: ويل لمن قرأها و لم يتفكر فيها".(٢)

وأحياناً كان الرسول ﷺ يقوم –دون أن يوقظ أهله– ويتوضأ ويقف لعبادة ربه. تقول أمنا عائشة أيضا رضي الله عنها سمعتُه يدعو: "اللهم أعوذ برِضاك من سخَطك وبمعافاتك من عُقوبتك وأعوذ بك منك (أي من قهرك

---

(١) البخاري، الدعوات ٣؛ الترمذي، تفسير سورة محمد (٤٧) ١؛ ابن ماجه، الأدب ٥٧؛ أحمد بن حنبل، المسند ٢/٢٨٢.

(٢) صحيح ابن حبان، ٢/٣٨٦؛ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٤/٣١٠؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٢/١٦٤.

بلطفك ومن جلالك بجمالك ومن جبَروتك برحمانيّتك ورحيميّتك) لاَ أُحْصي ثناءً عليكَ انتَ كما أثنَيتَ على نفسك».[1] وهذا هو الرسول الكريم ﷺ وهذا هو جهاده الأكبر وهذه هي عظمته.

د. والذين اتبعوه

لقد سعى الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين سعياً حثيثاً لاتباع الرسول الكريم ﷺ خطوة فخطوة، وبذلوا وسعهم ليعيشوا حياتهم كما كان الرسول ﷺ يعيشها، لأنهم كانوا مدركين جيداً أن رفقته في الدار الآخرة إنما تكون باتباعه في هذه الدار اتباعاً تامًّا. حتى كان منهم من أمثال "ثوبان" الذي خطر بباله يوماً مفارقة الرسول ﷺ فانقطعت شهيّته واستولى عليه الهم والغم. وفي إحدى الغزوات لم يصحب الرسول ﷺ. وعند عودته ﷺ كان الجميع يتتابعون إلى زيارته، وكان من هؤلاء ثوبان وقد نحل جسمه واصفر لونه حتى كأن لم يبق منه غير الجلد والعظم. فسأله الرسول ﷺ الرؤوف الرحيم: ما هذا يا ثوبان؟ قال ثوبان: لقد أهمني أمر فأوقعني فيما ترون، إذ قلت في نفسي: إنني لا أطيق فراق رسول الله ﷺ ثلاثة أيام، فكيف أقوى على فراقه في عالم خالد، حيث يكون هو في مقام رفيع وفي جنته الخاصة به، بينما أنا واحد من عامة الناس فلا يمكن أن أدخل جنته حتى لو دخلت الجنة. (بمعنى إنني سأفارقه إلى الأبد..) ففكرت في هذا يا رسول الله فوقعت في هذه الحالة. فأجابه الرسول ﷺ هذا الجواب الشافي الخالد: "المرءُ مع من أحبّ".[2]

إن محبة المرء تكون بالتشبُّه بالمحبوب، وجعل حياته أنموذجاً يقتدى به في حياته. والصحابة الكرام كانوا حقًّا على هذا الشعور تماماً.

---

(١) مسلم، الصلاة ٢٢٢؛ أبو داود، الصلاة ١٤٧؛ الترمذي، الدعوات ٧٥؛ النسائي، الطهارة ١١٩.
(٢) مسلم، البر ١٦٥؛ الترمذي، الزهد ٥٠؛ أحمد بن حنبل، المسند ٣٩٢/١.

مثال آخر: "عن جابرِ بنِ عبد الله قال: خرَجنا مع رسولِ الله ﷺ في غَزوةِ ذاتِ الرِّقاعِ فأُصيبَتِ امرأةٌ مِن المشركين فلما انصرف رسولُ الله ﷺ قافلاً وجاء زَوجُها وكان غائبًا فحلف أنْ لا ينتهيَ حتّى يُهْرِيقَ دَمًا في أصحاب محمّد ﷺ فخرج يَتبعُ أَثَر النبيِ ﷺ فنَـــزل النبيُّ ﷺ مَنـــزِلاً فقال: من رجلٌ يكلؤنا ليلتنا هذه فانتدب رجلٌ مِن المهاجِرين ورجل مِن الأنصارِ فقالا: نحن يا رسول الله. قال: فكونوا بِفمِ الشِّعْب. قال: وكانوا نزلوا إلى شِعْبٍ مِن الوادي فلمّا خرج الرجلان إلى فمِ الشِّعْب قال الأنصاريُّ للمهاجِريّ: أيُّ الليلِ أحبُّ إليك أنْ أَكْفيَكَهُ أوَّلَه أو آخِرَهُ؟ قال: اكْفِني أَوّلَه. فاضْطجع المهاجري فنام وقام الأنصاريُّ يصلّي وأتى الرجلُ فلمّا رأى شخص الرجلِ عرف أنّه ربيئَةُ القَومِ فرَماه بِسَهْمٍ فوَضعه فيه فنَـــزَعه فوَضعه وثَبَت قائمًا ثم رماه بِسَهمٍ آخرَ فوضعه فيه فنـــزعه فوضعه وثَبَت قائما ثم عاد له بثالث فوَضَعه فيه فنـــزَعه فوضعه ثمّ رَكَع وسَجَد ثم أهبَّ صاحبَه فقال: اجْلسْ فقد أُوتيتَ. فوَثَب فلمّا رآهما الرجلُ عرف أنْ قَد نَذَروا به فهَرَب فلمّا رأى المهاجِريُّ ما بالأَنْصاريّ منَ الدماءِ قال:سبحَان الله ألاَ أهبَبْتَني. قال:كنتُ في سورةٍ أَقرَؤها فلم أُحبَّ أنْ أَقطَعَها حتى أُنْفذَها فلما تابعَ الرّمْيَ ركعتُ فأُريتُكَ، وَايْمُ الله لَولا أنْ أُضيِّعَ ثَغْرا أَمرَني رسولُ الله ﷺ بحفظه لَقَطَعَ نفسي قبل أنْ أَقْطعَها أو أُنفِذَها".[1]

بمعنى أن الاطمئنان وسكينة القلب قد غمراه، وكأن القرآن ينـــزل عليه وهو يتلوه في الصلاة، وكأن جبريل عليه السلام ينفثه في روعه، فينتشى بنشوة الوجد حتى لا يجد أَلَم السهم الذي انغرز في جسده.

وهذا هو موقف من جمع بين الجهادين، الأصغر والأكبر. بل هذا هو الوجه الحقيقي للجهاد.

---

(١) أحمد بن حنبل، المسند ٤/٩٠؛ دلائل النبوة للبيهقي، ٣/٣٧٨-٣٧٩؛ حياة الصحابة للكاندهلوي، ١/٤٨١-٤٨٢ أبو داود، الطهارة، ٧٨.

"قالت حفصة بنت عمر لأبيها: يا أبت إنه قد أوسع الله الرزق وفتح عليك الأرض وأكثر من الخير فلو طعمت طعاما ألين من طعامك ولبست لباسا ألين من لباسك فقال: سأخاصمك إلى نفسك أما تذكرين ما كان رسول الله ﷺ يلقى من شدة العيش. قال فما زال يذكرها حتى أبكاها ثم قال إني قد قلت لك إني والله لئن استطعت لأشاركنهما -أي الرسول ﷺ وأبا بكر- في عيشهما الشديد لعلّي ألقى معهما عيشهما الرخي"[1] هذا هو سبيل رسول الله ﷺ والصحب الكرام رضوان الله عليهم أجمعين. إنهم في حضور دائم مع الله واتصال مستمر وثيق معه. فكانت عباداهم وأذكارهم من الكثرة والعمق بحيث من يشاهدهم يحسب أن ليس لهم شغل يشغلهم غير العبادة والذكر، هذا مع كمال إيفاء أمورهم الدنيوية والمعيشية حقهما من الاهتمام.

نعم، إنهم يمثلون خلاصة الإخلاص ولبّه، إذ ما كانوا يعملون عملاً إلاّ وفق مرضاة الله سبحانه، فكان كل عملهم في مراقبة عميقة دائمة لله. فها أمامنا مثال الإخلاص سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه. إنه قطع الخطبة يوماً دون سبب. وقال: كنتَ يا عمر راعياً لإبل أبيك الخطّاب.. ونـــزل من المنبر. فعندما سئل: ما الذي دفعك إلى هذا القول؟ أجاب: خطر ببالي أنني خليفة!

وعن عروة بن الزبير رضي الله عنهما: رأيتُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه على عاتقه قربة ماء فقلت: يا أمير المؤمنين لا ينبغي لك هذا. فقال: أتاني الوفود سامعين مطيعين فدخلتْ نفسي نخوة فأردت أن أكسرها".[2]

وقطع عمر بن عبد العزيز الخطبة على المنبر إذ خاف على نفسه العجب. وكتب مرة كتابا فخاف فيه العجب فمزقه وقال: اللهم أني أعوذ بك من شر نفسي.

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم، ١/٤٨-٤٩؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣/٢٧٧-٢٧٨.

(٢) مدارج السالكين لابن القيم، ٢/٣٣٠.

إن جهاد هؤلاء الأطهار الذين بلغوا الكمال روحاً وتكاملوا بها، لن يبقى بلا ثمر، لأنه في سبيل الله. وعلى هذا فالذين يتباهون ويتفاخرون بأعمالهم باسم الجهاد هنا وهناك، ولم يصلحوا شؤونهم الداخلية ولم ينجوا من الرياء والعجب والغرور والكبر، أعمالهم تخريب أكثر من أن تكون تعميراً. بل حتى لو بلغوا مبلغاً معيّناً في مرحلة ما، فلن يبلغوا الغاية والنتيجة قطعاً.

هـ. جلب العناية الإلهية ودعوتها

الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي تجمع الجهادين معاً كثيرة جدًّا. ومما لا شك فيه أن سورة النصر في مقدمة هذه الآيات:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾(النصر:١-٣).

فهذه السورة تبشر بمجيء نصر الله وفتحه حينما يدخل الناس أفواجاً في دين الله. وهكذا كان. فحينما أزيلت العوائق أمام الجهاد الأصغر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتبليغ الحق، ودخل الناس في الإسلام أفواجاً، ففي هذه المرحلة يكون الأمر الإلهي هو:

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ لأن جميع هذه الأمور ما هي إلاّ إحسانًا ونعمة إلهية بحتة، إذ هو الذي خلقها كلها.

فعلى الإنسان الذي ظهر على الأعداء في الخارج، أن يظهر على نفسه أيضا في عالمه الداخلي، ليتم جهاده ويكتمل.

وفي ضوء هذا تقول أمنا عائشة رضي الله عنها: كان الرسول ﷺ بعد نزول هذه السورة يردد باستمرار: "سُبحان الله وبحَمْده أستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه سُبحانكَ اللّهم أستغفرك وأتوب إليك".[١]

وفي حديث آخر يجمع الرسول ﷺ هذين الجهادَين معاً فيقول: "عَينان لا

(١) مسلم، الصلاة ٢٢٠؛ أحمد بن حنبل، المسند ٣٤/٦.

تَمَسّهما النارُ عَين بكتْ من خشية الله وعيْن باتتْ تَحْرسُ في سبيل الله".[1]

نعم، إن جهاد من يسهر على الحدود والثغور ويرابط في ميدان الحرب، وفي أخطر المواقع جهاد مادي. فالذي يؤدي هذا الجهاد لا تمس النار عينه.

وعين أخرى تحقق الجهاد المعنوي الأكبر، عين تبكي من خشية الله.

فهاتان العينان -في هذه البشرى النبوية- سواء في عدم مسهما النار.

نعم، محال لدى الرحمة الإلهية ووعد الله القاطع أن تمس النار هاتين العينين كمحالية عودة اللبن إلى الضرع! وواقع من يجاهد في سبيل الله أشعثَ أغبرَ لا يختلف عن هذا، فقد بشّر الرسول الكريم ﷺ في أحاديث كثيرة أن النار وهذا الغبار والتراب في سبيل الله لا يجتمعان.

نعم لا تمس النار تلك العيون التي تذرف الدموع ساخنة من خشية الله، وتحرس وتراقب مواقع دخول العدو مرابطة في الثغور والمواقع الخطرة. فالذي ينذر نفسه لهذه الأمور ويجابه المهالك التي تحدق بالبلاد ويتصدى لها بإنشاء مؤسسات يتربى فيها أبناء أمته بمستوى يليق بالإنسان، ويتجافى عن حظوظ نفسه وأذواقها لأجل الآخرين ويهتم براحة الآخرين وعيشهم الهنيء.. فهؤلاء لا تمس عيونهم النار. وعلى هذا فالذين يرون الجهاد جدالاً ونقاشاً هنا وهناك إن لم يراقبوا أعمالهم ويقوموها بموازين الجهاد الذي ينادون به، فإنهم لا يعملون إلاّ لقتل الوقت وخداع أنفسهم. فالذين لم يحسموا الأمر مع نفوسهم ولم يلجموها بالمراقبة الدائمة ولم يرغموا أنف الرياء ولم يسحقوا روح الافتخار ولم يجعلوه تحت أقدامهم، ولم يقلعوا من أرواحهم الكبر على الآخرين والتظاهر أمامهم.. فأعمالهم لا تنفع شيئاً سوى كونها مصدراً لإحداث القلاقل والاضطرابات.

ومن جهة أخرى فالذين ينسحبون من الميدان ويقبعون في زاويتهم آخذين نصيبهم من الجهاد من جهته المعنوية وحدها ويقولون: لا يصح

---

(١) الترمذي، فضائل الجهاد ١٢؛ كنـــز العمال للهندي، ١٤١/٣.

الانشغال مع الغير قبل جهاد النفس.. فهؤلاء الذين يروْن إحراز درجات معنوية لأنفسهم وبلوغ المراتب الرفيعة التي يروها فوق كل أمر، ويعزفون عن إرشاد الناس، هم بلا شك على خطأ واضح حيث يخلطون الإسلام بالروحانية الصوفية (ميستيزم).

إن الفكر المهيمن على القائلين بإصلاح أنفسهم قبل دعوة الآخرين مكتفين بالجانب المعنوي من الجهاد فحسب وهو: أن كل إنسان يحاسب بمفرده "فكل شاة برجلها ستناط" أو "كل شاة معلقة من عصبتها"، كما هو المثل العامي المشهور. وإن من لم يصلح نفسه أعجز على إصلاح غيره. لذا على المرء أن يلتفت إلى إصلاح نفسه أولاً.

فنقول لمن يستغرقه هذا الفكر: اعلم أن الإنسان حينما يظن أنه أنقذ نفسه فقد وقع من فوره في أخطر دوامة، فمن يطيق أن يدعي خلاص نفسه والقرآن الكريم يقول: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾(الحجر:٩٩).

نعم إن الإنسان مكلف بالعبادة حتى الرمق الأخير، فلا يستطيع أن يحجم عن أي عمل كان في معنى العبودية لله، حتى يُرفع الستار ويُدعى إلى العالم الآخر. فكيف يمكن لمن تستمر عليه مهمة التكليف هكذا، أن يقول: أكملت إنقاذ نفسي. إذن فإن جهاد الإنسان مع نفسه وسعيه لتطهيرها وتزكيتها من الأخلاق الرذيلة، ومحاولته إصلاحها وتقويمها سيدوم مادامت فيه الحياة.

نحن إذن مضطرون إلى العيش الدائم بين الخوف والرجاء، فكما لا يخطر ببال المؤمن الاطمئنان إلى النتيجة فليس من صفاته القنوط أيضا، إلاّ أن الخوف لا بد أن يكون أرجح في ميزانه في الدنيا. تأملوا في حال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو في أنفاسه الأخيرة فيضطرب خشية الحساب، و لم يخفف قلقه واضطرابه هذا إلاّ بشارة ابن عباس له إذ قال: أشهد لك يوم القيامة بأنك صالح.[1] نعم ألم يذكّرنا القرآن الكريم بـــ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾(الرحمن:٤٦)؟

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣٥٢/٣.

و. فهم السلف

لم يفهم الجهاد على وجه واحد من هذين الوجهين أحد من المرشدين الحقيقيين العظماء الذين ربّاهم الإسلام. فلم يتخلفوا عن نشر الحق والصدع به قط حتى لو كانوا وراء قضبان السجون. وكذلك لم يرخوا عنان العلاقة القوية مع ربهم ولم يهملوا قطعاً دائرة القلب مهما بلغ ميدان عملهم من التوسع. بل أصبح كل ما أفيض عليهم في هذا المجال جزءً من تكامل زلال المعرفة والعرفان عندهم فعاشوا دوماً بشعور الإحسان الإلهي، مستحضرين مراقبة الله لهم كل آن ومتقربين إليه سبحانه بعملهم هذا. إلى أن صار الرب جل وعلا بصرهم الذي يبصرون به ويدهم التي يبطشون بها.. فبارك الله فيهم حتى عُدّ الفرد منهم بألف.

ز. ما يجب على إنساننا اليوم

إن إنساننا في الوقت الحاضر، إن كان يريد أن يجاهد في سبيل الله حق جهاده وبما يرضيه –وهذا ما يجب عليه– عليه أن يراقب نفسه مراقبة جادة ويحاسب رغباته حساباً عسيراً، في الوقت الذي يزاول نشر الحق وتبليغ الحقيقة للآخرين. وإلاّ فهناك احتمال قوي أن يخادع نفسه، وعند ذلك لا ينتفع بعمله ولا ينتفع به غيره.

المجاهد يحمل من الإخلاص ما يجعله يختار الله على كل ما سواه، فهو إنسان خالص مخلص، ذو قلب حيّ.. وبذلك يكون الجهاد مثمراً وباقياً. فهو بدلاً من أن يملأ عقول الآخرين بأكوام من الغث والسمين من المعلومات، عليه أن يقرّ في قلوبهم وعقولهم الإخلاص وحسن النية وروح المحاسبة الداخلية والشعور بأن يكونوا من رجال القلوب.

نعم، الجهاد موازنة بين فتح الداخل والخارج. ففيه بلوغ الكمال ودفع الآخرين إليه. فبلوغ الإنسان ذاته جهاد أكبر ودفعه الآخرين إلى الكمال

جهاد أصغر. فإذا ما افترق أحدهما عن الآخر ينتفي معنى الجهاد عملياً. فيتولد من أحدهما الذل والمسكنة ومن الآخر العنف والإرهاب. ونحن ننتظر ولادة روح محمدي ﷺ، وهذا لا يمكن إلاّ باتباع الرسول ﷺ في هذا الأمر كما في كل أمر.

فما أسعد أولئك الذين يبحثون عن وسائل لإنقاذ غيرهم مثلما يبحثون عنها لإنقاذ أنفسهم. وما اسعد الذين لا ينسون أنفسهم في خضم العمل لإنقاذ غيرهم.

الجهاد ماض إلى يوم القيامة. لأنه مهما بذلنا من جهد في سبيل إنقاذ الإنسانية فلا بد أن يظل كفار يصرّون على كفرهم. وهذا يعني استمرار الجهاد، إذ نحن مكلّفون بتعريف ربنا الجليل إلى الناس كافة. فإن اعترض أحد سبيلنا في التبليغ، وأراد أن يصرفنا عن مهمتنا الخالصة النقية، فلا مفر من اللجوء إلى الجهاد الماديّ. نحن مضطرون إلى الانتصار والظهور في كلا الجهادَين المادي والمعنوي، إذ بخلافه نفقد حق الحياة ومتطلباتها كبشر. فلقد ضحى أجدادنا في فترة من الزمن بحياتهم لأجل هذا، إذ لما أراد "الصليب" أن يعترض هذا المفهوم الإنساني الذي يحملونه، وجدوا إزالة المانع في إعداد القوة. وهذا هو معنى الحروب التي خاضها أجدادنا وهذا هو مغزاها.

وحاشا أن تكون لهم غاية سوى التبليغ، وحاشا أن يكون الدافع عندهم حب الاستيلاء والسيطرة على الأماكن، بل كانوا عشاق "إعلاء كلمة الله" وما كان يهمهم شيء إلاّ إبلاغ حقيقة "لا إله إلاّ الله" إلى أرجاء الأرض كافة، حتى لا تبقى عليها نقطة مظلمة لم تتنور بنور الإيمان. فكأنهم كانوا مؤذّني أزمانهم على منائر، رافعين صوتهم بالأذان معلنين الإيمان إلى أرجاء الأرض كافة. نعم إن كلمة "لا إله إلاّ الله" هي التي رنّت في الآفاق من منائر هذه الأمة بلسان الجيش وقرقعة الأسلحة، فلم يك فينا يوماً حب الاستيلاء والسيطرة على الأقوام. فالأذان الذي رفعه السلطان محمد الفاتح وأمثاله من

منائر الدولة العثمانية قد بلغت أصداؤه أقصى الظلمات في العالم فنوّرها بـــ"لا إله إلاّ الله" حتى إننا نشاهد من لبّى هذا النداء وشهد هذا الأذان الرفيع في ميدان واسع يمتد من غابات بلغراد إلى سفوح هملايا، بل نسمع صداه حتى من موجات المحيطات المتلاطمة.

نعم، الجهاد ماض إلى يوم القيامة، لأجل إنارة كل زاوية مظلمة، وحمل نور اسم رسول الله ﷺ إلى كل بقعة، وإضاءة كل ناحية في العالم بنور القرآن المبين، والمؤمنون سيمضون بالجهاد المادي أيضا ليحققوا دورهم في إقامة التوازن بين الأمم والدول ليحظوا باسم "الأمة الوسط".

ونحن كأمة مكلفون بإحراز هذا الموقع الرفيع.. وهدفنا هو هذا لا غير.. لأن الله ﷻ يقول: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَـــطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾(البقرة:١٤٣).

هذا يعني: إننا جعلناكم وسطاً لما يحدث بين الدول، وعنصر توازن بين الأمم وشاهداً للاستقامة.. فهو سبحانه يدعونا لنرتقي قمة هملايا ونبلغ ذروة "حراء" لنشارك مشاركة شعورية بما كان الرسول ﷺ يستشعر به، فيدعونا إلى التكامل بذاتنا وفطرتنا الموهوبة لنا. ونحن بدورنا إما أن نعقد العزم ونجدده لنرتقي تلك القمة، أو نتقاعس راضين بما نحن فيه فنتردى إلى أسفل سافلين وننسحق تحت الأقدام.

الفصل الثاني

وظائف الجهاد

١. الجهاد مهمة الأنبياء والرسل

إن من يجاهد في سبيل الله ويبتغي مرضاة ربه بامتثال دعوته، لا يُنظر إليه نظرة إنسان اعتيادي في مستوى بقية الناس، ذلك لأنه اتخذ الغاية التي بُعث بها الأنبياء والرسل الكرام -صلوات الله عليهم- هدفاً له. ولنمثل هذا بمثال للتوضيح:

من المعلوم أن لكل إنسان مسلكاً معيناً ووظيفة تخصه، ولهذه الوظيفة خصائصها، فمثلاً الحلاق، أو النجار، أو السرّاج أو صاحب مهنة أخرى، كل منهم له هدفه المعين. ويقدّر وضعه الحالي وفق ذلك الهدف. ومن جانب آخر فإن كل مهنة تحرز الأهمية بنسبة بعدها وقربها من ذلك الهدف المعيّن لها. فأهمية مهنة الحلاقة -والحلاق أيضاً من جهة- تقاس بالنسبة لذلك الهدف. وقس عليها المهن الأخرى؛ فالنائب في البرلمان مثلاً، أو رئيس الوزراء أو رئيس الجمهورية -إن عدّت الرئاسة مهنة ووظيفة- يجري المقياس نفسه على هذه الوظائف كلها، أي تُحرز الأهمية وفق الهدف المعين.

إن مهمة النبوة أقدس وظيفة عهد بها إلى أشخاص أخيار مصطفَين من بين الناس. أما وظيفتهم فهي التعريف بالله، وبالدين الذي تلقوه منه سبحانه. فهم بهذا التبليغ يعلّمون الإنسان الذي بدأ من نطفة مستقذرة وينتهي إلى جثة نتنة، طرق البلوغ إلى عالم الخلود، إلى عالم الأبدية والاستقرار في مواطن السعادة والرفعة الدائمة. وبذلك تطمئن قلوبهم المحتاجة والمشتاقة إلى البقاء والأبدية، بالإيمان بالبقاء والدنوّ إلى الأبدية.

إن الهدف المقدّر في مهمة النبوة هو الإيمان بالله ومعرفته تعالى وإبلاغ

الإنسان طريق الخلود بتلك المعرفة والإيمان. ووصوله إلى الله سبحانه بعد عبوره من هذه الدنيا. وإراءته جلوات البقاء والخلود في هذا العالم الفاني، واستشعاره بألوان الوجود في الفناء. حتى يبلغ بأفكاره مبلغ الهالة المشعة بالأبدية ولا يرى نفسه إلاّ تحت ظل قوس نصر الخلود العظيم.

فالذين يفجرون هذه الماهية المغروزة في فطرة الإنسان المرشح للخلود، هم الأنبياء والرسل الكرام الذين قلدوا وظيفة النبوة.

فالنبوة بهذا هي أقدس وأنـــزه مهمة عند الله، حتى إنه سبحانه وتعالى وجّه الأنظار بعد ألوهيته جل جلاله إليها. هذا وإن أقدس وظيفة في هذه المهمة المقدسة هي الجهاد. إذ هو الواسطة والوسيلة التي توصل إلى النقطة النهائية المهمة المقدسة، فهي إذن مقدسة ومنـــزهة مثلها.

ومما يفيد قدسية هذه المهمة الآية الكريمة:

﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(التوبة:١١١).

بمعنى أن الذين يبيعون ما لديهم من وجود مادي من نفس ومال سيفوزون مقابلها بالجنة وسيحظون برضى الله جل وعلا.

والقرآن الكريم باستعماله كلمتي "البيع والشراء" يسمو بمرتبة الإنسان إلى مرتبة المخاطب لربه الجليل الذي يعقد معه سبحانه المواثيق والعهود. والرسول ﷺ يذكر في حديث شريف له: «كلُّ الميّت يُختم على عمله إلاّ المُرابِطَ، فإنه يَنمُو له عملُه إلى يوم القيامة ويؤَمَّن مِن فَتّان القَبر».[1]

---

(١) أبو داود، الجهاد ١٦؛ الترمذي، فضائل الجهاد ٢.

٢. الجهاد شهادة للحق

إن أحد جوانب الجهاد هو أداء مهمة الشهادة للحق، إذ كما يسمع –في المحاكم– إلى أقوال الشهود، إحقاقاً للحق، ومن ثم يُقضَى وفق شهاداتهم؛ كذلك المجاهدون في أثناء تحاكمهم مع الكفر والإنكار على الأرض، يشهدون لله بأعلى صوتهم قائلين "الله موجود" بل يُسمعون الأرض والسماء هتافهم. والآية الكريمة تبين لنا هذه الحقيقة بجلاء:

﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لآ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لآ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(آل عمران:١٨).

نعم، إن ذكر هذه الشهادات الثلاث في موضع واحد جنباً إلى جنب، ينطوي على مغزى عميق. وكما يأتي:

١) إن الله ﷻ يشهد على وجوده بذاته جل وعلا. والكاملون الذين بلغوا الحقيقة، يستشعرون بهذه الشهادة في وجدانهم شعوراً عميقاً وراسخاً بما يعجز القلم عن التعبير عنه أو سكبه في قراطيس.

٢) والملائكة أيضا شهود على وجود الله ﷻ، فالملائكة المخلوقون من نور خالص، فطرتهم صافية نقية لا تشوبها شائبة قط، حتى عجز الشيطان أن يُدخل فيهم الكفر والضلال. ففطرتهم الأصلية لم تتغير قط. فهم كالمرايا المجلوة في الصفاء والنقاء. فتشاهد في هذه الماهيات النـــزيهة أيضا تجلياته ﷻ وتَسْتَشْعِرُها وَتُقِرُّ بها.

٣) وأولو العلم أيضا يشهدون بوجود الله سبحانه.

فهذه الشهادات الثلاث كافية ووافية لإثبات وجود الله سبحانه حتى لو أنكرت الدنيا قاطبة وجوده تعالى.

نعم، إنه كذلك، إذ نشعر بهذه الحقيقة بجلائها وعظمتها في وجداننا حتى لا نجد داعياً إلى أي دليل آخر. فهذه الشهادة كافية ووافية كذلك لسَكَنَة الملأ الأعلى.

والذين صمّوا آذانهم وأعموا أبصارهم ولم يعودوا يدركون الآيات المبثوثة في الكون ولا يسمعون أصواتها الندية ويعجزون عن رؤية آثاره ﷻ في ملامح صنعته الباهرة في آفاق الأرض كافة، تكفيهم هذه الشهادة، شهادة أهل العلم.

والمجاهدون شهود الله، وسيهتفون بأصواتهم العذبة في المحاكم التي تنصب للمنكرين قائلين: إننا شهداء لله.

وفي الحقيقة أن الأنبياء الكرام ما أرسلوا إلا لأداء هذه الشهادة على أفضل وجه والقرآن الكريم يوضح هذه الحقيقة بالآية الكريمة:

﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً ۞ لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً﴾(النساء:١٦٥-١٦٦).

وفي كل أمة من الأمم نبي كريم ينير لهم الطريق. أما خاتم النبيين والرسل سيد الكونين والثقلين فقد أرسل إلى الإنسانية كافة لينير لها الطريق. ويذكّرنا القرآن الكريم بهذه الحقيقة بالآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾(الأحزاب:٤٥) وكلمة النبي في خطاب ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المعرّفة بـ"الـ" التعريف تعني نبياً معروفاً. أي أن نبوة هذا النبي معروفة وواضحة من كل جهة تنظر إليها. بل إن نبوته معروفة ومشهودة حتى عند الجمادات بسلامها عليه،[١] والنباتات[٢]

(١) انظر: مسلم، الفضائل ١.

(٢) انظر: ابن ماجه، الفتن ٢٣؛ أحمد بن حنبل، المسند ١١٣/٣.

والحيوانات[1] بانقيادها وخضوعها لأوامره، فهو نبي كريم معروف عند المخلوقات قاطبة، مما لا يمكن إنكار نبوّته قط. فلقد لانتْ أقسى القلوب وأغلظها أمامه ﷺ. أفلا يثبت هذا أنه النبي المعروف؟!

أما كلمة ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ في الآية الكريمة المذكورة، فهي بصيغة المخاطب ﴿كَ﴾ وفيها إيماء وتلميح ورحمة إلى من هو رحمة للعالمين.

أما ﴿شاهداً﴾ فيعني: أنه سبحانه يقول لنبيه: إنّا أرسلناك شاهداً للإنسانية، لتبلّغ الناس كافة بأنني موجود فتعرّفهم بي، وتكون شاهدي عليهم ولو كذّبك العالم أجمع وأنكروا عليك. فأنت تعلن وتبلغ وجودي. فأنت شاهد في هذه المنزلة. ثم إن جماعة الشهود يخلفونك ويسيرون وراءك، فهم شهداء على الإنسانية وأنت شاهد عليهم، تشهد لشهادتهم، فشهادة أمته ﷺ هذه سترفع مسؤوليات بعض الأنبياء في يوم الحشر الأعظم، كما ورد ذلك في الحديث الشريف: "قال رسولُ الله ﷺ: يُدعَى نوحٌ عليه السلام يوم القيامة فيقال له: هل بلّغتَ؟ فيقول: نعم. فيُدعَى قومُه فيقال لهم: هل بلّغَكم؟ فيقولون: ما أتانا من نَذير أو ما أتانا من أحد. قال فيُقال لنوح:مَن يَشهد لك؟ فيقول: محمد وأمّته. قال فذلك قَولُه ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: الوسَطُ العدلُ قال: فيُدْعَون فيشهدون له بالْبلاغ قال: ثمّ أَشهد عليكم".[2]

---

(١) انظر: أحمد بن حنبل، المسند ٤/١٧٠-١٧١؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٩/٤.

(٢) البخاري، الإعتصام ١٩؛ أحمد بن حنبل، المسند ٣/٣٢؛ ابن ماجه، الزهد ٣٤.

٣. الجهاد منبع الحياة

الجهاد منبع يتدفق بالحياة، فيجعل المسلمين في حيوية مستديمة. فما من أمة حُرم أفرادها من الجهاد الماديّ والمعنوي، إلاّ ظهرت فيهم المشاحنات والمخاصمات الداخلية ففسدت الأمة من داخلها وتعفنت. والعثمانيون يمثلون آخر مثال حي لهذه الحقيقة. ومما لا ريب فيه أن القدر قد حكم على العثمانيين -كما حكم على غيرهم من الأمم- بالنخر والفساد والعطب. ولا جرم أن لهذا الأمر أسبابه الخاصة به. إذ لو انغمس حكام في حياة الشهوات والرذائل في القصور وأهملوا إعلاء كلمة الله، ودبّت رخاوتهم وإهمالهم هذا في صفوف الجيش، فإن الدولة تفقد موقعها المرموق بين الدول فضلاً عن البؤس والشقاء الأبدي الذي يلحق بالأمة مع المخاصمات والمشاحنات الداخلية التي لا نهاية لها. نعم إن هذه المخاصمات الداخلية هي التي أدت إلى انهيار دولة عظيمة علية. وأنهت وجودها من على الأرض.

ونحن مذ تركنا الجهاد نمت فينا الفرق والتخريب، وما نشاهده في الوقت الحاضر من التكتّلات والتخريبات والفرق ليست إلاّ ثماراً من حنظل وزقوم نمت من تلك البذور الجهنّمية التي نثرت في تلك الفترة. ولا خلاص من هذه الحالة المميتة إلا بالجهاد. فالجهاد للمؤمن أسمى غاية وأعلى مثل يمكنه أن يضحى له بنفسه. إذ يحظى المؤمن بالتطهر الكامل بالانغماس في عَرَقه والتوضّؤ بدمه وما ذلك إلا بالجهاد.

ومن الذين ذاقوا طعم هذه اللذة الرفيعة هو حرام بن ملحان في أثناء سقوطه إلى الأرض بعدما أصيب بسهم في صدره فقال: "اللهُ أكبر، فُزتُ

وربّ الكعبة".[1] فلو أجرينا مقارنة بين ما غنمه "حرام بن ملحان" وما ذاق في سبيل الله من ذوق رفيع، ندرك عندئذ مدى فوزه حقًّا. نعم الجهاد أربح تجارة. والله ﷻ يدعونا إلى هذه التجارة الرابحة بقوله:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(الصف:١٠-١١).

بمعنى أن الله سبحانه يقول: إنني أدعوكم أيها المؤمنون إلى أربح تجارة وأعظمها حيث تفوزون بحياة خالدة عزيزة سعيدة في الجنة فضلاً عن نجاتكم من نار جهنم.

نعم، الجهاد الذي هو إنارة كل موضع في الأرض وإبلاغ أنوار اسم سيد المرسلين إلى أشد الأماكن ظلاماً، وإنارة العالم كله بنور القرآن المبين.. هذا الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة. وسيظل المؤمنون في مستوى المسؤولية لأداء مهمة الأمة الوسط وحقها بين الدول والشعوب.

(١) البخاري، الجهاد ٩؛ مسلم، الإمارة ١٤٧.

٤. الجهاد شعور سامٍ

إن أعظم شعور ينبغي أن يتنبّه لدى المؤمن هو شعوره بالجهاد. فلا يعدّ من الأحياء من لا يحمل هذا الشعور بل لا فرق بينه وبين شواهد القبور. إنه حقًّا يمثل ويرمز إلى الأموات. ولا ينظر إليه الرب الرحيم بنظر الرحمة قطعاً. لأن الذي لم ينذر نفسه لتبليغ اسم الله في الأرجاء ولم يتخذه هدفاً وغاية له، لا فرق بينه وبين الجمادات، إذ الإنسان يكتسب الحياة والحيوية بمقدار ما يحمل من روح الجهاد. لأنه لا يستطيع أن يحيي نفسه وعائلته وأمته ويقيهم من الموت إلاّ بالجهاد. نعم الحياة الحقيقية لا تتحقق إلا بالجهاد، وإن أفضل وأنبل خطوة يخطوها الإنسان وأعظمها وأسماها وأكثرها فائدة وثماراً هي الخطوة التي يخطوها نحو الجهاد.

إن من أهم ما يلفت النظر من خصائص الرسول الكريم ﷺ ضمن عظيم إصلاحاته هو تكوينه لجماعة لا ترهب الموت، ولا تتراجع عما رأته صواباً في طريق الحق، وتحتفظ بأقصى درجات الحيوية والنشاط... هذه الجماعة كانت دائمة التفكير بالجهاد بل كشفت سرّ الخلود بهذه الوسيلة، وسيخلّدون، إذ لا تغلق دفاتر حسناتهم إلى يوم القيامة بفضل ما قدّموه من تضحيات جسام، بعدما اقتحموا المصاعب والمهالك في سبيل نشر الإيمان. نعم، إننا وجميع من سبقنا من الأجيال وكل الأجيال المقبلة في ذكر مستمر لمحاسنهم وأفضالهم علينا مع أنهم قد ارتحلوا عن هذه الدنيا من الناحية المادية.

وعندما يؤمن الإنسان بالعالم الآخر يصبح الجهاد أسمى فكر وأطيب غاية وأرفع أمنية لديه. فالشعور الذي تنامى واكتمل لدى الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين هو هذا الشعور والفهم والإدراك. فتراهم يتسابقون في الاشتراك في بدر، ويقف الأطفال منتصبين على أصابع أقدامهم

كي يظهروا طوالاً كباراً لأجل الاشـــتراك في الحرب، ويحزن الذيـــن لم تسعفهم أعمارهم بالمشاركة فيها..[1]

إذ كانوا يقولون: لِمَ يجعلنا الرسول ﷺ مع النساء؟ أليس الجهاد من عمل الرجال، فلِمَ نظل في بيوتنا مثل النساء؟ وبهذا الشعور السامي انطلقت تلك الجماعة السعيدة المحظوظة إلى بدر، إلى جهاد يغير مجرى قدر الإنسانية. إذ كان الأمر حتى ذلك الوقت منحصراً في الإرشاد والتبليغ.

ولكن "ما إن واجه الكافر المؤمن، وأتى الرسولَ ﷺ الخبرُ عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، استشار النبي ﷺ الناس وأخبرهم بمسير قريش، فقام أبو بكر رضي الله عنه فقال فأحسن، ثم قام عمر رضي الله عنه فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، امض لما أمرك الله به، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾(المائدة:٢٤) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى "برك الغماد" -إحدى مدن الحبشة- لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير. ثم قال رسول الله ﷺ: أشيروا عليّ أيها الناس -وإنما يريد الأنصار- وذلك لأنهم كانوا عدد الناس -أي جمهورهم-. قال له سعد بن معاذ رضي الله عنه: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل فقال: فقد آمنا بك وصدّقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يارسول الله لما أردتَ، فوالذي بعثك إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنّا لصبُر عند الحرب، صُدق عند اللقاء... ولعلك أن تكون خرجت لأمر، وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك، فامض له، فصِلْ حبال من شئت، واقطع حبال من

---

(١) انظر: مجمع الزوائد للهيثمي، ٦/٦٩؛ حياة الصحابة للكاندهلوي، ٢/٩٣-٩٤.

شئت، وعاد مَن شئِت، وسالم من شئت، وخُذْ من أموالنا ما شئت... فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشّطه ذلك، ثم قال: "سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم" "[١] فكان الصحابة الكرام في جيشان وحماس حتى قال الذين ولوّا الدبر من الكفار وفرّوا إلى مكة: "إنهم هجموا علينا هجمة واحدة فكأننا موثقون فاستسلمنا لهم فكانوا يضربون منا فوق الأعناق وكل بنان".[٢]

نعم إن الجهاد فرض وواجب لاستمرار هيمنة دين الإسلام الحنيف ولنجاة المسلمين من الذل والخنوع وليعيشوا كرماء أعزاء. فإن لم تكن في مجتمع إسلامي طائفة تؤدي هذه الوظيفة -التي يأمر بها القرآن[٣]- فلا حياة إسلامية إذن. وحتى لو كانت هناك حياة إسلامية فردية فهي بلا سند ولا مرتكز. وحينما يترك المسلمون هذه الوظيفة ينقلبون على أعقابهم ويهوون حتى لو اجتازوا الفضاء الواسع وربطوا بين النجوم والكواكب. فلا ينجيهم ما بلغوا من الرقي والتكنولوجيا والصناعات وحدها ما هم فيه من الهاوية. فالجهاد فرض كفاية، ويصبح فرض عين على كل فرد ويكون مسؤولاً عنه أمام الله، إن لم يُؤدّى وعلى وجهه الأمثل وأُهمل كلياً كما هو في زماننا هذا.

والدولة كذلك عليها القيام بالجهاد المنظم. فأحياناً يتعهد الجيش بوظيفة الجهاد وأحياناً تتولاه قوى الأمن الداخلي، فكلاهما يجاهدان المعتدين من الخارج والداخل. فجهاد الأمة العسكرية المجاهدة شامل للعالم كله، لأن الأمة المجاهدة عنصرُ توازن بين الدول وقد عهد إليها ﷺ بهذه المهمة الجليلة.

ولأجل أن تكون الأمة عنصر توازن على الأرض لا بد أن يكون الجيش على مستوى الإدراك لهذه الوظيفة التي هي أقدس وظيفة وأجلّها. فلا توازن

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي، ١٠٧/٣؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٢٦٦/٢، ٢٦٧؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٥٥٥/٣ (باختصار).

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن للطبري، ١٩٧/٩-٢٠٥.

(٣) انظر: سورة آل عمران: ١٠٤.

على الأرض ما لم تكن عليها أمة تتعهد القيام بهذه المهمة.

وكم هو مؤلم أن المؤمنين منذ قرنيْن أو ثلاثة قرون صاروا ألعوبة بأيدي آخرين يتحكمون في إقامة التوازن، فلا يقدرون أن يؤدوا دورهم في التوازن العالمي. وقد أصبحت مساجد المؤمنين مأوى المساكين والخاملين، وغدت زواياهم وكر المحرومين من العشق، وتحولت مدارسهم إلى موضع تدريس الثقافة الغربية المادية (سكولاستيك) حتى باتوا يعالجون قضاياهم وكأنهم في دهاليز القرون الوسطى. وكيف يستطيع المحرومون من إدراك عصرهم أن يفرضوا ثقلهم في التوازن الدولي؟

وأعتقد أنه لا يمكن العمل باسم الإسلام ما لم يسبق المؤمنون عصرهم في مضمار التقنية، وما لم يعيشوا حياة العشق والوجد كالصحابة الكرام، وما لم يرتبطوا بالله برباط وثيق من العبادة والطاعة كالتابعين الكرام. ذلك لأن الذي لا يعيش في مستوى عصره ولا يحل مشاكله وأدواءه بعلاجات ذلك العصر، لا يمكنه أن يعمل شيئاً باسم الإسلام.

إن كل أمة أو فرد يحمل عزة إسلامية لا بد أن يعدّ نفسه مأموراً بهذه المهمة الجليلة، مهمة الجهاد. فالأمم أو الأفراد الذين لا يستشعرون في أنفسهم مثل هذه المسؤولية، ليس لهم حظ من العزة الإسلامية.

إن الجهاد مهمة جليلة وتكليف عظيم، لا بد أن تنذر جماعة نفسها له وتكون في "رباط" دائم، وبهذه المرابطة والعيون الساهرة تنجو الأمة بكاملها من كل خطر يحدق بها وتصد كل هجوم مادي ومعنوي متوقع من قبل الأعداء الداخليين أو الخارجيين. وتصبح دقائق وثواني حياة "المرابطين" الساعين في هذه المهمة مباركة كالسنوات، وسنواتهم كالعصور. فما أسعدهم! ينالون الخلود وهم مازالوا في هذه الدنيا. ذلك لأنهم قد نذروا حياتهم لهذه المهمة فيصبح مأكلهم ومشربهم ومنامهم ويقظتهم في حكم عبادة مقبولة يثابون عليها.

ومن المعلوم أن الحسن والجمال ينقسم إلى قسمين: حسن لعينه وحسن لغيره، فالحسن لعينه هو بذاته حسن، أما إن لم يكن حسناً بذاته ولكن بنتائجه، فهو حسن لغيره. والجهاد ضمن هذا القسم الثاني. وهذا يعني:

أن الجهاد ليس جميلاً بذاته، لما فيه من قتل وخراب، ولكن الذي يجمّل الجهاد ويحسنه أنه وسيلة لأمور حسنة. فمثلاً: الجهاد وسيلة لإعلاء كلمة الله، ولجعل المؤمن في وضع يُعده ليهيمن على موازنة الأمور في الأرض، ولصد الأعتداء على الإسلام والمسلمين، ولتعهده المظلومين والضعفاء... فالجهاد من هذه الجوانب جميل. لذا يصح القول: إن جمال الجهاد وحسنه مشروط بإعلاء كلمة الله.

نعم يجاهد المؤمن فيعتلي الفرس ويركب الطائرة ويقود الدبابة ويستعمل الصواريخ... ولكن لا يستعمل كل هذا إلاّ لإعلاء كلمة الله.

نعم، الجهاد الذي أُمر به المؤمن هو هذا. فليس جهاداً إن كان لغير وجه الله كأن يكون للحمية والدم والعرق، أو لأي اسم آخر. فالرسول ﷺ يبين الجهاد بوضوح في حديثه الذي يرويه الإمامان البخاري ومسلم إذ يقول: "مَن قاتَل لتكون كلمةُ الله هي العُليا فهو في سبيل الله".[1] ومفهومه المخالف: أنّ من لم يقاتل لإعلاء كلمة الله ولرفع رايته في آفاق العالم، فليس له حظ من الجهاد، وبدوره فلا جمال ولا حسن فيه. نعم، إن الجهاد هو ما كان لإعلاء كلمة الله، والمجاهدُ إنما يجاهد لإعلاء كلمة الله، وإنارة كل ظلام على الأرض، فيقطع البراري والفيافي ويتجاوز الجبال والغابات حتى إذا بلغ البحر المحيط يقول كما قال عقبة بن نافع رضي الله عنه: "يا ربِّ، لولا هذا البحر لَمَضَيتُ في البلاد مُجاهدا في سبيلك".[2] فلو وضعوه وحده في جزيرة نائية لَنقّب عن وسيلة في أبعاد أخرى لإعلاء كلمة الله، وربما بلّغ الجن والأرواح

(١) البخاري، العلم ٤٥، الجهاد، ١٥؛ مسلم، الإمارة ١٤٩-١٥١ أبو داود، الجهاد ٢٦.
(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير، ٤/١٠٦.

الخبيثة كلمة الله، ولكأن قول الرسول ﷺ: «الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة»[1] قد قيل في أمثال هؤلاء.

جاء رجل عقب فتح مكة وسأل الرسول ﷺ قائلاً: يا رسول الله إني أريد الهجرة. فأجابه الرسول ﷺ "لا هجْرةَ بعد الفتح ولكن جهادٌ ونيّةٌ"[2] فكان للهجرة معنى ومغزى قبل فتح مكة، إذ كانت تعني الجهاد. أما بعد الفتح فقد بلغت الهجرة بُعداً مهما آخر من أَبعاد الجهاد. أي إن الهجرة لكونها هجرة لم تعد جهاداً. نعم ليست جهاداً ولكن -من جهة- تتحقق بالجهاد.

فلم تعد الهجرة تعني انتقال المرء من مكان إلى آخر لأجل الجهاد. بل يمكن للمؤمن أن يجاهد في موضعه. وهذا يعني تحويل كل إنسان ما حوله إلى حدائق وارفة ومحيطه إلى بساتين غناء. وإذا ما اقتضى الأمر إلى الانتقال فلا شك أنه مستعد لذلك ويقوم به.

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي، ١٠٦/٥.

(٢) البخاري، الجهاد ٢٧؛ مسلم، الإمارة ٨٥؛ أبو داود، الجهاد ٢.

٥. الجهاد مرتع واسع للبركة والعطاء

لا شك أن ما يؤدي إلى الخير خير مثله، كما أن ما يؤدي إلى الشر شر مثله. فالذي نذر نفسه وحياته للخير وأوقفها لعمل الخير فإن يومه ليس أربعاً وعشرين ساعة، بل سنين طوالا. لأن ساعات يومه الأربع والعشرين تسجل كلها حسنات له في دفتر أعماله، فإذا هو وهب نفسه لدعوته وعاش في حب الحقيقة والهيام بالحق فإنه يحظى باللاَّمحدود في هذا العمر المحدود، حتى في أثناء نومه ويقظته وفي مشربه ومأكله وفي حلّه وترحاله. وإن الله ﷻ ينير النقاط المظلمة في حياته جزاء نيته الحسنة وتخطيطه المتقن لأجزاء حياته وفق تفكيره الحسن لدعوته، ويوصله بفضله وكرمه إلى آفاق منيرة. فلا تبقى نقطة سوداء في حياة مَن وهب نفسه في سبيل الله، فلَيله كنهاره. نعم إن كل ثانية من عمره بمثابة سنين من العبادة، كيف لا وهو في طريق الخير. إذ كل ما يبذل في سبيل الباقي الحقيقي له ثواب عظيم مهما طال أو قصر، ولهذا فإن لحظة واحدة منه خير من ألوف السنين من حياة ميتة عقيمة.

ولأن الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين أدركوا هذا السر كانوا يراجعون الرسول ﷺ ويسألونه المزيد من طرُق الخير. حتى كان منهم من يسأل: "دُلَّني على عمَل إذا عَمِلتُه دخلتُ الجنّة".[١]

فهؤلاء الذين استنارت عقولهم بمعرفة الله كانوا في بحث دائم عن طرق أبواب الخير. وهذا يعني تحريهم عن وسائل تيسّر لهم سلوك الطريق نحو الخلود والأبدية. فاستفساراتهم من الرسول ﷺ لم تفتر بحثاً عن طرق الخير، حتى كأنهم يتسابقون في هذا السبيل. ولهذا نرى أن الجميع رجالاً ونساءً

---

(١) البخاري، الزكاة ١.

وشيباً وشباباً في جد وجهد دؤوب في الخير وإحجام وامتناع حازم عن كل ما يحول دونه.

فمنهم مثلاً:

نسيبة المازنية رضي الله عنها: امرأة أمضت حياتها بالجهاد. نذرت نفسها مع زوجها وأولادها أن يكونوا في إمرة الرسول الكريم ﷺ، عندما تشرفت المدينة المنورة بهجرة الرسول ﷺ إليها، فاشتركت في بدر وأحد. كانت تداوي الجرحى وتضمدهم. ولكن ما أن حمي الوطيس حتى خاضت غمار الحرب قاتلت قتال الأبطال. فغايتها الوحيدة وأمنيتها العظيمة في كل حركاتها وسكناتها أن تكون مشاركة في الجهاد مع رسول الله ﷺ. وربما عاشت أحرج فترة من فترات حياتها وأكثرها قلقاً واضطراباً عندما أبلَغَها الرسول الكريم ﷺ ألاّ تشترك في الغزوات مع الرجال بعد نـــزول آية الحجاب. حتى إنها قالت وهي تبكي: "كيف أظل هنا وأنت تجاهد يا رسول الله"[١] فحزنت حزناً شديداً لبقائها بعيدة عن طريق للخير.

وهذا **ابن عمر** رضي الله عنه يقول: كنت في الثالثة عشرة من عمري يوم خرج الرسول ﷺ إلى بدر، فأشار إليّ بإصبعه: تراجع. وفي ليلتها ما إن دخلت الفراش، أقسم بالله أنني لم أكرب مثل تلك الليلة.[٢]

وهذا **عمير بن أبي وقاص** رضي الله عنه أخو سعد بن أبي وقاص، كان غلاماً يوم بدر لا يتجاوز الثالثة عشرة من العمر. فكان ينتصب على أصابع قدميه يطاول الرجال كي يشارك في الجهاد. وما أن قبله الرسول ﷺ حتى طار فرحاً حيث قد فتح الرسول ﷺ له باباً إلى الخير. فدخل من هذا الباب واستشهد.[٣]

---

(١) حياة الصحابة للكاندهلوي، ١/٥٩٧-٥٩٨؛ أسد الغابة لابن الأثير، ٢٨٠/٩؛ الإصابة لابن حجر، ٤١٨/٤.

(٢) كنـــز العمال للمتقي، ٤٧٦/١٣.

(٣) أسد الغابة لابن الأثير، ٣٠٠/٤.

و**أبو سفيان** الذي عادى الرسول ﷺ حتى يوم فتح مكة، ولكن بعدما أسلم كان يبحث دوماً عن باب للخير. فوجد ضالّته في الجهاد. وأُصيب في عينه بسهم من العدو فخاطب عينه المفقوءة: وما كان نفعك ولم تبصري صاحبك سبعين سنة. فرماها واقتحم صفوف العدو.[١]

و**حارث بن هشام** رضي الله عنه كان مع جيش المسلمين الأبطال العشرة آلاف مقابل مائة ألف من جيش البيزنطيين. فيقول: يا من قاتلتم في بدر بين يدي رسول الله ﷺ، وجاهدتم بأنفسكم في أحد، وبايعتم رسول الله ﷺ في الحديبية -حيث لم يكن هو من بين هؤلاء- تعالوا لنرفع هذه الراية ونتكاتف ونتعاون لئلا تسقط على الأرض.[٢] وهكذا لم تسقط تلك الراية على الأرض. نعم لم تسقط على الرغم من كثرة الأيدي التي تلقفتها، وكم من أيدٍ قُطِعَت لأجل رفعها، فصانوها من السقوط بأيديهم حتى قطعت ومشَوا بها بأرجلهم حتى بترت، وحموها بأجسادهم حتى الشهادة، فلم تسقط على الأرض. فلئن تقدم العدو في ذلك اليوم خطوة فإنما كان يخطو على أشلاء الأبطال من أمثال حارث بن هشام رضي الله عنه الذي صار أوصالاً مقطعة.

فالجهاد لهؤلاء بلاء لا يداوى إلا بالجهاد.

واسْتأذن **سيدنا بلال الحبشي** رضي الله عنه سيدَنا أبا بكر رضي الله عنه مرات ومرات ليغادر المدينة بعد وفاة الرسول ﷺ، ولكن أبا بكر كان يرفض طلبه كل مرة إذ كان يراه هدية تذكارية من رسول الله ﷺ له، ولكن بلالاً كان يتحرق شوقاً للجهاد، فهو معتاد على امتشاق السيف في ميادين الحرب، ورفع الراية. فلقد صاحب رسول الله ﷺ في الجهاد، لذا صعْب عليه البقاء في

---

(١) انظر: أسد الغابة لابن الأثير ١٤٩/٦.

(٢) انظر: الإصابة لابن حجر، ٢٩٤/١؛ أسد الغابة لابن الأثير، ٤٦٠/١؛ كنـز العمال للمتقي، ٣١/٥؛ المستدرك للحاكم، ٢٤٢/٣.

المدينة لأداء مهمة الأذان وحدها. فانتصب قائماً يوم جمعة وفي أثناء الخطبة وقال: يا أبا بكر إن كنت أعتقتني لنفسك فاحبسني، وإن كنت أعتقتني لله ﷻ فذرني أذهب إلى الله ﷻ..[1] ويمضي بلال إلى الشام ويستشهد في معركة ويدفن في قبر مجهول. وما دفعه إلى تلك البقاع إلاّ جذوة الجهاد المتقدة في داخله.

أما **أبو خيثمة** رضي الله عنه فقد تأخر عن اللحاق برسول الله ﷺ وصحبه في خروجهم إلى تبوك فعذّب هذا التأخر والتخلف وجدانه وأقلقه قلقاً شديداً حتى أسرع إلى جواده وتوجّه نحو تبوك، وعندما كان الفرس يتعب يحمل سرجه على ظهره ويمشي مسرعاً ماضياً في سبيله إلى تبوك. وما أن شاهد الرسول ﷺ وصحبه –وهم على ماء– غباراً كثيفاً من جهة المدينة حتى قال: كن أبا خيثمة. وبعد هنيهة تراءى أبو خيثمة جلياً. فسُرّ رسول الله ﷺ بمجيئه وبارك مقدمه. وقال أبو خيثمة وهو يلقي نفسه في أحضان الرسول ﷺ كدتُ أهلك يا رسول الله.[2] لأن التخلف عن الجهاد ذنب عظيم. كان أبو خيثمة يخشى أن يهلك بمثل هذا الذنب العظيم.

إن الجهاد باب للخير عظيم، فالذي يدخل من هذا الباب لا بد أن يفوز بأحد الثوابين والخيرين، فإما يكون شهيداً فهي حياة خالدة أو مجاهداً وله نعم الدنيا والآخرة.

ففي الجهاد بركات عظيمة أمثال هذه.

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير، ١/٢٤٤.

(٢) انظر: مسلم، التوبة ٥٣؛ الكامل في التاريخ لابن الأثير، ٢/٢٧٨؛ أسد الغابة لابن الأثير، ٦/٩٣.

٦. الجهاد منبع حياة لا موت فيه

إنه لحقيقة لا مراء فيها أن الذين يستشهدون في سبيل الله أحياءٌ يُرزقون، والدليل على هذا آيات كريمة كثيرة وأحاديث شريفة كثيرة وحوادث تاريخية لا تحصى.

فمثلاً: سليمان شاه الذي كان من ســادات العثمانيين ومن المجاهدين الأوائل، وهو الأخ الأكبر للسلطان مراد، كان المتوقع أن يتولى الحكم بعد والده، ولكنه كان يتولى تنظيم الهجمات والغارات على أوروبا كما كان قد اقتحم بيزنطة من قبل. وقد وُفّق إلى عبور مدينة "جَناق قَلْعَة" بالقوارب إلى جهة أوروبا وسيطر على شبه جزيرة "غالي بولي"، وضمّها إلى حكمه وتقدم حتى بلغ "بولاير" وكان الناس جميعاً يترقبون يوم توليه الحكم، إلاّ أنه استشعر في وجدانه بما يشبه بشارة من مكان قصيّ.. فجمع قادة المجاهدين وخاطبهم: إذا مت في يومي هذا، فلن يفوت البيزنطيون الفرصة على أنفسهم، وسيعيدون الكر على المواضع التي فتحناها، فوصيّتي إليكم أن تكون جنازتي حافز تجمع لكم لمهاجمة العدو هجمة رجل واحد متوكلين على الله، مستندين إلى رسوله. وإياكم والتخلف عن الجهاد.

فلما أبكر عثرت قدم فرسه في حفرة، فسقط رأساً على عقب واستشهد. فوقع كما قال، واجتمع القادة على جنازته وأغاروا على العدو غارة رجل واحد فشتتوا جنود البيزنطيين أيّ تشتيت حتى لاذوا بالفرار. وقالوا لجنود المسلمين بعد مدة: كان يتقدمكم في كل هجمة فارس شاب طويل القامة بعمامة خضراء صارم السيف، يشتت الجنود يمنة ويسرة.

وهذا يعني: أن الله ﷻ كما وَكّل مَلَكاً كريماً يحارب بدلاً عن سيدنا

مصعب بن عمير ﷺ بعد استشهاده في أحد،[1] وكما أنه ﷺ يديم معركة سيدنا حمزة ﷺ العظيمة إلى يوم القيامة، كذلك يديم أعمال سليمان شاه الذي أراد إبلاغ اسم الرسول ﷺ إلى قلب أوروبا، حالما توفى. ذلك لأن الشهداء أحياء بنص القرآن الكريم.

وقد عبّر عن هذا أيضاً "هاملتون" قائد الجيش البريطاني في معارك "جَناق قَلْعَة" حيث قال: "ما كنا نهرب من حرابكم وبنادقكم بل ممن كانوا يتقدمونكم من شبّان يافعين ذوي عمامات خضر، لا تؤثّر فيهم قذائف المدافع وطلقات البنادق". فالشجعان الذين عبّر عنهم هاملتون هم أرواح الشهداء.. أولئك الأحياء دوماً حيث بلغوا مرتبة عدم الموت.

نعم، إن المؤمن بعدما رضي أن يموت عزيزاً، فإن عزّته ستدوم إلى يوم القيامة كراية خفاقة باسم الدين الذي آمن به.

أجل، إن موتاً كهذا لا يحظى به إلاّ من استحقر الحياة وابتسم في وجه الموت، كأولئك الأبطال أبناء الأبطال.. فالجهاد حظ أولئك الأطهار الربانيين الذين ولدوا أطهاراً، فلا يسعهم مجد الأمة وعزها قبراً بل يدفنون في قلب الأمة الإسلامية.

والله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾(البقرة:١٥٤).

نعم، لو رفعت الغشاوة عن الأبصار سيتيقن كيف ينعم الشهداء في العالم الآخر. وإذا ما أَمْكَن الإتصال بأرواحهم ومخاطبتهم والتحدث معهم، سيشهد بكاءهم على الأحياء. فنحن نبكي وراء الشهداء ونرقّ على أَيتَامهم الذينَ تركوهم، بينما هُم يَبكُونَ على الوضع الأليم لأهل الدنيا، وعلى الدنيا التي أصبحت صنَماً يُعبد من دون الله. وعلى الحياة التي غدت تمضي في

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٢١/٣؛ المغازي للواقدي، ٢٣٤/١.

رخاء وراحة ملفعة بالذل والبؤس، وعلى القعود عن الجهاد في سبيل الله، وعلى التكاسل عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى الليالي التي تمضي سوداء مظلمة، وعلى السجاجيد التي لم تبتل بالدموع الغزيرة، وعلى عدم الانكسار لوضع المسلمين الأليم... وفي الحقيقة أن الشهداء في عيش رغيد وحياة ملؤها السعادة والطمأنينة، أليسوا في كل لحظة مع الله سبحانه وتعالى؟ أليست حياتنا المعاشة كالجحيم قياساً إلى حياتهم الخالدة؟. إن هذه الحياة التي أصبحت وسيلة لدخول الشيطان فيها لإبعادنا عن الله جلّ وعلا، هي حياة يرثى لها، ويصعب تحمّلها، ولكن كم هو مؤلم أننا نعيشها بلهفة وحرص ورغبة!

الفصل الثالث

علاقة

الجهاد – المُؤمِن – الكَون

١. الجهاد واجب كل مؤمن

لا شك أن لكل فرد من الأفراد وظيفة تناط به في هذه الحياة الدنيا التي لا قرار فيها لشيء. فالأموال تنفد والعمارات تخرب، ولا ينفع الإنسان إلاّ ما أرسله من ههنا إلى هناك. فما عليه إلاّ العمل الدائب والسعي الجاد ليتمكن من إرسال شيء إلى هناك قبل الرحيل إليه.

ومما ينبغي أن يُعلم قطعاً: أن كتاب أعمال الإنسان يغلق بموته، وسينفرد بما عمل، ولا يستثنى من هذا إلاّ من دافع عن دينه وأمته وعرضه وشرفه وعن كل ما يجب أن يحافظ عليه. فالذين نذروا أنفسهم لله وبذلوا ما يملكون في سبيله وفي سبيل نشر الإسلام العظيم، لا يغلق كتاب حسناتهم قطعاً، وقد ورد في حديث شريف ما يوضح هذا بجلاء:

"كلُّ الميِّت يُختم على عمله إلاّ المُرابِط، فإنه يَنْمُو له عملُه إلى يوم القيامة ويُؤَمَّن من فَتَّانِ القَبر".[١] فإنه سنّ سنة حسنة وشق نهجاً وسبيلاً إلى الخيرات، فكل حسنة يعملها من يأتي بعده يُكتب مثلها في كتاب حسناته، فضلاً عن ذلك فهو آمن من فتنة القبر وعذابه، لأنه لم يمت موتاً حقًّا حتى يرى عذاب القبر، بل بدّل مكاناً بمكان فحسب، فما تركه من جليل الأعمال يعيش كل حين في قلوب الناس.

فالذي يقول إن محمداً ﷺ والخلفاء الراشدين والصحب الكرام رضوان الله عليهم أجمعين قد ماتوا وانتهوا، فهو الميت حقاً، ذلك لأنهم قد سنّوا سنناً حسنة عظيمة. وفتحوا سبلاً منيرة لا نعرج على شيء في طريقنا في الحياة إلاّ ونرى ما يخصّهم من آثار جليلة. وكلما رأينا آثارهم سجدنا سجدة شكر

(١) الترمذي، فضائل الجهاد ٢؛ أبو داود، الجهاد ١٥.

لله قائلين: ليرفع الله ذكركم، ويرضَ عنكم أجمعين... فقد مهّدتم لنا السبيل إلى الله تعالى ويسّرتم لنا الطريق إليه لنلجها بأمان واطمئنان.

ولهذا تتضاعف حسناهم وفضائلهم ومزاياهم وترتفع حتى تبلغ العرش الأعظم. فهؤلاء بلا شك آمنون من عذاب القبر، لأن هذا العذاب يخص الأموات. نعم، إن عذاب القبر لأموات الروح وأناسي الجسد الذين لم يصبغوا حياهم بالدين الذي هو صبغة الله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾ (البقرة:١٣٨). فهؤلاء لم يحتسبوا حياهم للحقيقة الأحمدية، ولم يتخذوا القرآن دستور حياهم. أما الذين نذروا حياهم لهذه الحقائق وبذلوها في سبيل الله، فهم في منجاة من عذاب القبر. يقول سيد الكونين سيدنا محمد ﷺ في الجهاد:

"مَن رابَط ليلةً في سبيل الله سبحانه كانتْ كألْف ليلةٍ صيامِها وقيامِها".(١)

فعليكم إذن أن تصوموا ألف يوم وتقيموا ألف ليلة كي تبلغوا ثواب المرابط ليلة واحدة في سبيل الله تجاه العدو الذي يريد الحلول في بلدكم وتخريب أمتكم. بل هذا أرضى لله وأكثر قبولاً عنده.

من المؤمنين من يوفي بمهمة الجهاد حق الوفاء فينال الفضائل التي ذكرناها آنفاً. ومنهم من يعجز عن القيام الفعلي بالجهاد ولكن ينال جزاء عمله مثل أولئك فضلاً منه سبحانه وتعالى. بمعنى أن من يعمل في سبيل الإيمان والقرآن -ولو حمل حجَرا للبناء- لا يضيع عمله هباءً قط.

فمن يتبنَّى القضية التي يشاور بشأنها ويعمل على إنجازها ويصبح وسيلة في خدمتها يكافأ -كلٌّ- حسب نياته ويثاب على عمله. فبدءً من الكاتب الذي يجاهد بقلمه وحتى الناشر له. كلٌّ يأخذ ثوابه كاملاً غير منقوص.

ولهذا ينبغي على كل مسلم أن يشترك في هذه المأدبة العظيمة بما منحه الله سبحانه من إمكانات وقابليات، ليغنم النتيجة الحاصلة من عمل الجميع.

---

(١) ابن ماجه، الجهاد ٧.

يروي أبو هريرة ﷺ في حديث المعراج:

".... فسار وسار معه جبريل عليهما السلام. قال: فأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم كلما حصدوا عاد كما كان. فقال النبي ﷺ: يا جبريل، ما هذا! قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله، تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف، وما أنفقوا من شيء فهو يُخلفه، وهو خير الرازقين".[١]

بمعنى أن الرسول ﷺ لما ارتقى بالمعراج سماءً سماءً بعبوديته وعبْديته إلى الله منسلخاً من عالم الناس مرتقياً إلى عالم الملكوت، فرأى مناظر شتى، واطلع على مشاهد كثيرة. فشهد في هذه الأثناء أن قوماً يزرعون في اليوم ويحصدون ما يزرعونه في اليوم نفسه. وما أن يجنوا الحاصل حتى تزرع البذور مرة أخرى وتثمر مرة أخرى. وعندها استفسر الرسول الكريم من جبريل: يا جبريل من هؤلاء؟...

ومن هنا فالمؤمن إذ يضحّي بحياته كلها وأذواقه وراحته وشبابه في سبيل الله، عليه أن يعتقد أنها لا تذهب هباءً منثوراً ولا تفنى فناءً قط بل ما إن يرحل إلى العالم الآخر يرحل إليه مطمئن القلب حيث سيرى أنه لم يهدر مثقال ذرة من عمله قط. نعم، إن الله الحفيظ على كل شيء والرقيب على كل شيء سيحافظ على ما بذله المؤمن في سبيله. نعم، الله يحفظ عمل المؤمن ويجازيه خير الجزاء كما لو خرَّ له ساجداً —إن كان السجود وارداً في الجنة— لا يرفع منه رأسه إلى الأبد فأنه لا يوفي شكره لله على ألطافه العميمة وإنعامه السابغة عليه. وأعتقد أن اللذة الروحية الحاصلة من هذه السجدة لا تتخلف عن لذات الجنة الأخرى.

والرسول ﷺ يبيّن في حديث شريف الشركة في ثمرات الجهاد فيقول:

"مَن جَهّز غازيًا في سبيل الله فقد غزَا ومن خَلَفَ غازياً في سبيل الله بخَير فقد غزَا".[٢]

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٣١/٥.

(٢) البخاري، الجهاد ٣٨؛ الترمذي، فضائل الجهاد ٦؛ النسائي، الجهاد ٤٤.

نعم، إن من لا يقدر على الإشتراك في الجهاد بالذات ولكن يستطيع أن يعاون من هم في الجهاد ويحتضن بمؤسساته المجاهدين ويقيهم، فإنه يكون معهم في الجهاد فعلاً. فالذين عاونوا مجاهدي بدر وجهّزوا مجاهدي أحد وبذلوا أموالهم لمجاهدي تبوك سيسيرون معاً إلى الرب الجليل ويحشرون معاً. ذلك لأنهم استجابوا لأمر الله ورسوله في الجهاد وإن لم يشتركوا مع المجاهدين فعلاً لأعذار لهم، إلاّ أنهم لم يتخلفوا عن الجهاد.

نعم إن الذين خرجوا للجهاد في تبوك سيجدون أزواجهم وأولادهم وشيبهم وشبابهم معهم يوم القيامة. إذ الصبيان أتوا بسكاكينهم وحرابهم ووضعوها أمام الرسول الكريم ﷺ وأتت العرائس بقراطهنَّ، وحتى الشيوخ أتوا بما لديهم من عصي.. فبذل كلٌّ ما لدَيه لله ووضعه أمام الرسول ﷺ قائلين لتكن لنا مشاركة في الجهاد.[1] فهؤلاء جميعاً سيعاملون معاملة من جاهد جهاداً فعليًّا. يذكر ذلك الرسول الحبيب ﷺ في حديث آخر:

"إنّ بالمدينة لَرجالاً ما سرتم مَسيرا ولا قطعتُم واديا إلاّ كانوا معكم حَبَسَهم المرَض"[2] وفي رواية أخرى "إلاّ شارَكوكم في الأجر".

بمعنى أن الأعذار كالشيخوخة والعجز والفقر والأنوثة أو ما شابه، مما يقيد المرء عن الاشتراك في الجهاد الفعلي، لا تنقص من ثواب المجاهدين، حيث سيَقبلهم الله الجليل كالمجاهدين فعلاً ويثيبهم على عملهم حسب نياتهم. وهذا ما نفهمه من بشارة الرسول الكريم ﷺ في الحديث السابق. ونعدّ إيماننا هذا -كما هو الوارد في الحديث الشريف- من قبيل الدعاء بحقنا. ولاسيما في الوقت الحاضر الذي تُرك فيه الجهاد كليًّا. فنحن نعتقد يقيناً أن من اشترك جزئيًّا أو كليًّا في هذا العمل -العمل للإيمان والقرآن- سينال ثواب الجهاد كاملاً، ونسأل الرب الكريم ألاّ يخيبنا في يقيننا هذا.

---

(١) المغازي للواقدي، ٣/٩٩١-٩٩٢؛ حياة الصحابة للكاندهلوي، ١/٤٢١، ٤٢٢.

(٢) مسلم، الإمارة ١٥٩؛ البخاري، المغازي ٨١.

٢. لنستعد للجهاد كل آن وحين

على المؤمنين أن يكونوا على استعداد كامل لما قد يداهمهم من أخطار حقيقية في قابل الزمان، ولا يدّخروا شيئاً من صحتهم وشبابهم إلا وبذلوه في هذا السبيل، وعليهم أن ينسّقوا حياتهم وفق ذلك لئلا يقعوا في ورطة وحرج أمام ما يستجد من أحداث فيقلقوا ويضطربوا ويحاروا تجاهها.

فالقرآن الكريم يحثّنا إلى هذا بالآية الكريمة: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اَللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾(الأنفال:٦٠). والرسول الكريم ﷺ يأمرنا: "مَن احتَبَس فرَسا في سبيل الله إيمانا بالله وتصديقا بوَعده فإنّ شِبَعَه ورِيَّه ورَوثَه وبَوْلَه في مِيزانه يَومَ القيامة".[١]

فالحديث الشريف يحث على الاستعداد للجهاد بهذا الأسلوب الملائم، وكذلك عندما سأل الصحابة الكرام رضوان الله عليهم الرسول ﷺ عن الخيل قال: "الخَيلُ لثلاثَة: لرجُلٍ أَجرٌ، ولرجلٍ سترٌ، وعلى رجل وِزرٌ، فأمّا الذي له أجرٌ فرَجلٌ ربَطها في سبيل الله، فأطالَ في مَرْجٍ أو رَوْضَة، فما أصابتْ في طِيَلِها ذلك من المَرجِ أو الرَّوضَة كانتْ له حسناتٌ، ولو أنّها قطَعتْ طِيَلَها، فاستَنَّتْ شرَفا أو شَرَفَين، كانتْ أَرواثُها وآثارُها حسَنات له، ولو أنّها مَرّتْ بنَهرٍ فشَربتْ منه ولم يُرِدْ أنْ يَسْقيَها كان ذلك حسَناتٍ له. وأمّا الرّجُلُ الذي هي عليه وِزرٌ فهو رجُلٌ رَبَطَها فَخرًا ورِياء ونِواءً لأهل الإسلام فهي وِزرٌ على ذلك".[٢]

---

(١) البخاري، الجهاد ٤٥؛ المسند للإمام أحمد، ٣/٣٧٤.

(٢) البخاري، الجهاد ٤٨؛ الترمذي، فضائل الجهاد ١٠.

وقد ذُكر الخيل في الحديث لأنها أَسرع واسطة للنقل والحرب لعصر معين. أما في الوقت الحاضر فقد تغير الزمان، والناس يستعملون السيارة وغيرها من وسائط النقل والحرب، لذا يمكن أن ينسحب الحكم الوارد للخيل على وسائط النقل المستعملة في وقتنا الحاضر.

نعم، قد تكون سيارة وزرًا على صاحبها، حيث يستعملها في السفاهة والآثام، وربما وسيلة للعداء للإسلام. وسيارة تكون ستراً لصاحبها حيث يستعملها في أمور مشروعة، وربما واسطة لرزقه ولا ينسى حق الله فيه. وسيارة أخرى نُذرت في سبيل الله. يتنقل بها صاحبها من قرية إلى أخرى ويصطحب فيها المرشدين والوعاظ إلى مواضع المحتاجين إليهم. فكل قطرةِ وقودٍ تحرقها هذه السيارة، وكل قرش يصرف عليها، وحتى الغازات العادمة الخارجة منها، والأصوات الصادرة منها، والطين الذي الْتصق بعجَلاتها.. كل ذلك يُكتب حسنات في سجل حسنات صاحبها، وكأن حركة العجلات تولد الحسنات وتسجلها كتروس المعمل. فكل ما يدخل فيها وما يخرج منها وحتى الآثار التي تتركها على الأرض تؤدي وظيفة قلم يكتب الحسنات باستمرار.

فنحن نقدر فائق التقدير ذلك المحظوظ الذي نذر سيارته لخدمة الإيمان والقرآن وحمّلها أعباء دعوة الحق، ولسان حاله يقول: إن الغاية من شرائي هذه السيارة هي نشر الحقائق. وغني عن التعريف أن هذا تهيئة وتحضير ومقدمة للأعمال الجليلة التي تتحقق بإذنه تعالى في المستقبل.

٣. الجهاد يتّحد به المؤمن كل آن

إن الجهاد -المادي والمعنوي- أعظم دافع ودستور للحياة الإسلامية، فإذا خبا في المؤمن روح الجهاد يذبل وينطفئ أيضاً عشق الإيمان والإسلام رويداً رويداً، فتحيطه شرارات الفتن من كل جانب، حتى تمسه ألسنة لهيبها. والفتن تولّد فتناً أخرى، فتغدو بيوت هؤلاء ومحالهم وأزقّتهم وأسواقهم في النهاية أوكار لعنة وفساد. حتى تخور قواهم أمام الأحداث الرهيبة فلا ينبض لهم عرق تجاه حادث أو فعل.

وكذلك تزول من القلوب بركة الوحي بنسبة زوال الرغبة في الجهاد والشوق إليه، وينمحي الشوق والعشق لإدراك المقاصد الإلهية، حيث القلوب باتت بعيدة وغريبة عن أن تكون مهبط الإلهام الرباني، فيحرمون من الأسرار الإلهية. فنَهار هؤلاء مظلم كلَيلهم، ذلك لأن الله ﷻ إنما يتفضل بالتجليات والفيوضات على قلوب الذين يتحملون أعباء الجهاد ويتعهدون بإعلاء كلمة الله بما يوافق عظمته سبحانه، فلا يتحول المجتمع الذي يعيش فيه هؤلاء إلى أنقاض وخرائب.

نعم، إن تكامل الفرد والأسرة والمجتمع، بأكمله مرهون بالجهود التي تبذل في سبيل إعلاء كلمة الله في الحياة والمجتمع. فإن قدّم المؤمنون شيئاً من الهمة والجهد بتجوالهم في القرى والأرياف، قرية تلو الأخرى، قصبة إثر قصبة، يبلّغون الناس دعوة الله الحقة، فهذا يعني أن الله سيحيي ذلك المجتمع من نواحيه كافة، أما إن كان المجتمع محروماً من هذه الروح وهذا العشق، فإنه يتهاوى على رؤوس أفراده. إما اليوم، أو غداً، أو بعد غد. وإنّ غداً لناظره قريب. والتاريخ يشهد كم من أعزّاء أصبحوا أذلاء، وكم من أغنياء وأثرياءِ غدوا فقراء معدمين عندما حرِموا الجهاد. فالذين كانوا يتوّجون

الملوك أصبحوا أذلاّء بعد أن دارت الأيام، وصاروا يتوسلون بتقبيل الأقدام. ونحن نتلو اليوم عليهم الآية الكريمة: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۞ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾(الدخان:٢٥-٢٧). وربما يأتي يوم -حفظنا الله منه- من يتلوا علينا الآية الكريمة نفسها!

نعم، لقد قُرئتْ "الفاتحة" على أرواح الأمويين والعباسيين والسلاجقة والعثمانيين. فإن كنا لا نريد أن تتحول الأناضول، آخر معاقل الإسلام تجاه غزو الغرب، إلى مقبرة تقرأ فيها "الفاتحة"، علينا الابتعاد عن أحوال الموتى وأوضاع المقابر، بمعنى أن نكون أحياء حياة تليق بالإنسان.

فنحن نعظمُ بنسبة تعظيمنا لدين الله، فنكتسب قدرا وحالا لدى الله بقدر عظمة اسمه الجليل في قلوبنا، أما إذا تهاونّا بالأمر وأهملنا واجبنا في التبليغ والدعوة، وتركنا مهمتنا فنصغُر بقدر ذلك أمام الله، ونُدَمَّر ونـــزول.

فإن كنتم تريدون أن تكونوا أحياء أعزاء، عليكم أن تضعوا اسم الله في سويداء قلوبكم، وتجعلوه سبحانه غاية حياتكم، وتُزيلوا كل ما ليس له صلة بالله من حياتكم، بل حتى من أحلامكم. قولوا معاً: إن القبر الذي هو رواق الآخرة خير لنا من حياة لا أتمكن أن أحبّ الله فيها ولا أستطيع من تبليغ دعوته سبحانه، ولا أقدر على إنفاذ أوامره في الحياة. فالموت خير لي من أن أحمل قلباً لا ينفتح لتجلّياته جل وعلا لتغسل أدرانه.. اسعوا لبعث هذا الشعور السامي وهذه الفكرة الطيبة في قلوب الأمة جميعاً. وحاولوا أن يقف المجتمع على قدميه بعد أن انهارت فيه كثير من المقومات. وذلك لينجيكم ربكم من أن تكونوا كالقطعان الضالة.

المؤمن يعرف ما ينبغي أن يفضّل وكيف يفضّل، وفق الموازنة المطلوبة بين الدنيا والآخرة ويستشعر في وجدانه بأهمية الآخرة وإيثارها على أمور الدنيا الفانية، فهو دائماً على استعداد لتفضيل أمر الله على أمور الدنيا. وبحسب هذه المفاضلة لا يُضحّي بالأمور والأشياء الباقية السرمدية لأجل أمور زائلة

تافهة، بل يهتمّ بالدنيا بقدر مكوثه فيها وبالآخرة بقدر بقائه فيها. فلا يقع في إفراط اليهود بتعلّقهم بالدنيا، ولا في تفريط دين النصارى بها.

والمؤمن يعدّ التذلل تجاه أمور دنيوية هو المرتبة الأولى للتعرض للذل والخزي في العقبى. لأن الذين جعلوا الدنيا أكبر همّهم ومبلغ علْمهم يحرمون منها فضلاً عن تضييعهم للآخرة. فالذي يهاب الموت يفقد لذة الحياة، كذلك والذي يفقد صوابه تجاه العدو في جبهة القتال ويفرّ من الزحف خوفاً على حياته وعشقاً لها أو يعتريه الاضطراب والقلق على حياته ومعيشته فيجد الحل في الفرار من ساحة الجهاد، يُحرم من الحياة عينها والعيش نفسه. وحتى الذي ينــزوي في صومعته تاركاً الدنيا وما فيها، متخلفاً عن الجهاد المقدس، يحرم من تلك الصومعة أيضاً. فساقطو الهمة سيفقدون يوماً كل ما لديهم، وينقلبون رأساً على عقب. بينما ذوو الهمة العالية ممن يهدفون إلى إعمار الكون بنجومه وكواكبه يستصغرون الدنيا ويأبون أن يروا العالم يقوده حاكمان إثنان بل يجدون في أنفسهم الأهلية لحكمه من دونهما فيعيشون برؤى حاكمية العالم طوال عمرهم.

نعم، إن الذين فضّلوا الموت على الحياة، قد كشفوا عن سر الخلود، ووجدوا الطريق إلى العيش الأبدي. وأما الذين افتتنوا بسحر الدنيا وجمالها فيتشبثون بها بما لديهم من طاقة تاركين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مهملين ما يجب عليهم في هذا الصدد.. هؤلاء يدفعون بالأمة إلى التهلكة فضلاً عن أنفسهم. ويتركون الجيل المقبل ضائعاً تائهاً دون صاحب أو حامٍ.

فجهاد المؤمن يتوقف على تلافي هذه العواقب الوخيمة.. نعم إن الشوارع والأزقة تتنور بجهاد المؤمن، ولا يندفع الفوضى والإرهاب الذي أغرق الدنيا في بحر من الدماء إلاّ بجهاد المؤمن. والسلام الدائم للإنسانية قاطبة وسعادتها إنما تستقر على الأرض بجهاد المؤمن.

فالمؤمن هو هذا الإنسان الذي يسير نحو هذه الغاية السامية. ولربما يبلغ

الغاية أو لا يبلغها، ولكن في كِلا الحالتين ستحتضنه الرحمة الإلهية وسيحشر مع السعداء الأبرار الذين قضَوا نحبهم في سبيل هذه الدعوة، وتمسكوا بتلابيب الرحمة الواسعة.

ومما لا ينبغي أن ننساه هو هذه الحقيقة: أنه بحسب المؤمن أن يسلك طريق الحق ويثبت عليه، وليس من الضرورة بلوغ النتيجة دائماً. فبلوغ كل إنسان إلى الهدف غير وارد، وإنما على كل واحد أن يتحرك ويسكن ويعمل ويسعى ويجدّ لبلوغ الهدف. أما حصول رضى الله في هذه السبيل فقد لا يتيسر إلاّ لمن وفّقه الله لنيل رضاه.

نعم، إن ما كان يخفق به قلب الغازي عثمان ويضطرب له ويقلق عليه لسنين طويلة قد تحقق بيد أحفاده. فكانت كل خطوة خطاها سلطان إثر سلطان عظيمة بقدر النتيجة الحاصلة منها. ولها نفس القيمة والأهمية عند الله. فأعمالهم كلها جهاد، والذين اشتركوا معهم جميعاً في هذا الجهاد يسجَّلون في سجل المجاهدين. نعم، إن كل من امتطى جواده وهيأ فرسه وحمل قوسه وشدّ الرحال إلى ديار الكفر لتبليغ دعوة الإسلام يسجل في سجل المجاهدين. فلا فرق بينهم وبين القائد الذي قاتل في المعارك، ولا فرق بينهم وبين من ضم البحرين العظيمين ضمن سلطنته وحاكميته فأصبح عنصر توازن في الأرض حتى سكّت النقود باسمه... ذلك لأن كلاً منهم كان يستهدف الحقيقة نفسها ويتحرك ويسعى لها.

نعم إن الدنيا التي سينشؤها فِدائيو المحبة هي أساس السكينة ومنبع الطمأنينة ومرتكز السلام الذي سيعمّ الإنسانية قاطبة. فكل خطوة تُقدّم في هذه السبيل لإنشاءِ مثل هذه الدنيا خطوة مقدسة، وكل هِمة تدفع في هذه السبيل جليلة عظيمة مهما كانت صغيرة، فإن كان باستطاعتكم أن تخطو خطوة واحدة فاخطوها قَبل أن تنقطع أنفاسكم.. تسابقوا في السير إلى الله تعالى مع الملائكة الكرام كي يعزّكم الرب الجليل ويرفعكم إليه تعالى، حتى

إذا ما توفاكم قبل إنجاز المسابقة، فقد فُزتم.. نعم لا تضيع عنده حَبة من خردل من الأعمال.

وتأملوا هذا المعنى في قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي اْلأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيماً﴾(النساء: ١٠٠).

ولعل إيراد سبب نـــزول هذه الآية الكريمة يوضح المسألة أكثر:

كانت القلوب تتحرق شوقاً إلى الإيمان بالله. والناس بدأوا يرِدون إلى منبع الفيض الإلهي في المدينة المنورة زرافات ووحداناً، حيث ذابت الحواجز بين القلوب وأصبح الجميع يفدون إلى الرسول الحبيب ﷺ في المدينة المنورة، حتى أصبح الأعداء السابقون أصدقاء وأولياء.. وكان منهم جندب بن ضمرة الذي قال: علَيّ أن أذهب إلى المدينة.. وانسلّ من بين الكفار متوجهاً إلى المدينة المنورة، فكان يستشعر بنسائم المدينة من بعيد.. ولكن أصابه مرض شديد أقعده عن الذهاب والهجرة، فلم يستطع أن يبلغ غايته.. ولما أحس أنه سيموت مَدّ يديه إلى السماء بقلب ملتاع. وقال: يا رب! اقبل إحداها يدك والأخرى يد الرسول الكريم ﷺ فأنا أبايعك، بمثل ما بايعك به رسول الله ﷺ.. وتوفى قبل وصوله المدينة المنورة. ونُقل الخبر إلى رسول الله ﷺ. وقال بعض الصحابة إن جندب لا يعدّ مهاجراً ولا يفوز بثواب المهاجرين.[1] فنـــزلت الآية الكريمة، مبشّرة بأن جندب من المهاجرين. وأن من ترك بيته بنية الهجرة إلى الله ويموت في الطريق ينل ثواب المهاجر.

نعم، إن سالك طريق الحق، هو على الحق. فالذي يوصل إلى الحق، حقٌّ مثله. أجل، قد لا يتمكن كل أحد أن يبلغ الكعبة والطواف حولها واستلام الحجر الأسود وتقْبيلها ثم التطهر من الذنوب على عرَفة. ولكن من كان

(١) أسد الغابة لابن الأثير، ١/٤١٢-٤١٣؛ الدر المنثور للسيوطي، ٢/٦٥٠-٦٥٤.

يحمل عشقاً لهذا الطريق والسلوك فيه، وكان همه وفكره يدور حول هذا، فلا يدَعه الرب الجليل ﷻ وهو الرحمن الرحيم ولا يترك ذلك القلب الواله العاشق محروماً من الثواب.

إنه لا فرق بين الصغير والكبير من الأعمال التي تؤدَّى في سبيل الله. ألا فليعلم أولئك الذين يقولون: "إنني لا أتمكن من أن أجاهد بمثل ما تعرّفون الجهاد" و"لا أستطيع أن أبلّغ تلك المسائل" و"لا لي من طائل الأموال ما أنفقه في سبيل الله"... وأمثالها من المعاذير.. فليعلم هؤلاء أن من يشترك في هذه المأدبة الربانية ولو بملعقة صغيرة ينل -من دون أن يشعر- ثواب من اشترك فيها بملء الوديان والبحار.

نعم لا عبرة بصغير العمل وكبيره ما دام في سبيل الله، فرُبّ عمل بقدر ذرة في سبيل الله يرجَّح على الأطنان من الأعمال، ورُبّ خطوة واحدة في تلك السبيل تجلب من البركات والخيرات ما يعمر بها الإنسان آخرته، ولهذا عليكم بخلوص النية في العمل لله. وابذلوا ما لديكم وما تستطيعونه من عمل، ولا يساورنكم شيء من الظن فإن عناية الله ورعايته معكم.

٤. الربانيون ممثلو الحاكمية

إن الجهاد الذي بدأ منذ آدم عليه السلام واستمر بالأنبياء الآخرين، قد أدامه مئات من الربانيين المعروفين والمجهولين لدينا، في كل فترة من فترات التاريخ. والقرآن الكريم يعلّمنا هذه الحقيقة بالآية الكريمة الآتية:

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ۞ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۞ فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(آل عمران:١٤٦-١٤٨).

فالآية الكريمة تذكر "الربّانيين" الذين يستحقرون الحياة ولذائذها كافة، وكل ما يعود إليها، وهم لا يسكنون ليل نهار في ابتغاء مرضاة ربهم ويبذلون كل غال ونفيس في سبيله، فقد نذروا أنفسهم لله، ينشدون الحق دوماً، ولسانهم رطب بذكره الجليل. فهؤلاء يرتبطون بالله ربهم بأوثق رابطة، وجهادهم نابع من صميم قلوبهم.. نعم إنه جهاد الربانيين الذين لا يهنون لما أصابهم في سبيل الله ولا يستكينون ولا يضعفون. فلا يؤثّر فيهم شيء حتى لو انشقت السماء عليهم وانشقت الأرض وابتلعتهم ودارت رَحى المصائب على رؤوسهم. فهؤلاء يسيرون في سبيلهم لا يبالون بالبلايا لا يفت جلل في عضدهم وعزمهم وإقدامهم في طريق الحق الذي آمنوا به. فهم أبطال الصبر ورجال الثبات. فالصبر مغروز في فطرتهم بل هو اشتهاء وشوق فيهم. فهذا الشوق والشهية من أهم الوسائل لجلب رحمة الله عليهم. ذلك لأن الله يحب الصابرين.

ومن جهة أخرى تراهم يتسابقون مع الملائكة في الطهر والعفة، متخذين طور الأنبياء قدوة في تجنبهم الآثام والمعاصي. فهم على علم من أن الإثم وقساوة القلب تعرّضان الإنسان إلى الخور وقلة العزم وضعف الثبات. لذا يستمرون في حياتهم وهم يحملون عزماً وإقداماً وثباتاً، ويلتجئون إلى ربهم كل حين راجين غفرانه لذنوبهم وإسرافهم في أمرهم.

نعم، إن الإثم مانع وعائق لنـــزول الرحمة الإلهية بمعناها الكامل. لذا فلا بد من التوبة من الإثم فوراً، ولعل تقديم التوبة والمغفرة على النصر في الآية الكريمة هو من هذا الأمر: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۞ فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(آل عمران:١٤٧-١٤٨). إن القرآن الكريم يبين لنا طريقاً سويًّا لجلب محبة الله ورضاه، وهو يرشدنا: إن كنتم تريدون ذلك، فها هو الطريق.. كونوا من الربانيين. ومن هنا كان كل نبي من الأنبياء يربّي في أمته الربانيين الذين يمثّلون دعوته ويسلّم أيديهم راية الجهاد. فلكل نبي ربانيون من هؤلاء قلّوا أم كثروا.

فلقد مضت هذه السنة الإلهية هكذا حتى بلغت رسولنا الكريم ﷺ. والذين أنشأهم الرسول الكريم ﷺ من الصحب الكرام كلهم ربانيون. فكل صحابي رمز للجهاد والبطولة والثبات. وكل صحابي كأنه على صورة حواري، فهو أزهد الزهاد وأعبد العبّاد ليلاً، وهو في النهار بطل يلقي الرعب حتى في قلوب الأسود الضارية. فأقوى الجيوش الجرارة ينهزم أمامهم ويهربون كالأطفال الصغار. ذلك لأنهم عشاق الموت، في حين أنَّ أعداءهم يهربون خوفاً من الموت وهلعاً منه.

وإليكم أمثلة من خير القرون:

آ. أنس بن النضر رضي الله عنه

لم يشترك في بدر، وهو الذي التحق مع أهله أجمعين بالنور، وحظي

بالنور وأصبح نوراً منوراً، وولج طريق النور لنشر نور الحقيقة... ولكنه مع هذا لم يقدّر له الاشتراك في بدر لأسباب خارجة عن طوقه. فشقّ ذلك عليه ولهذا كان دائماً يتألم ويتحرق، ولاسيما عندما عاد أُسُود بدرٍ من الغزوة فأخذ يضرب يده على ركبته متألماً وقال: "يا رسول الله غِبْتُ عن أوّلِ قتال قاتلتَ المشركين لَئن الله أَشهدني قتال المشركين لَيَرَيَنَّ اللهُ ما أَصنَعُ".[1]

وبعد مضي سنة واحدة، أتت قريش -انتقاما لمعركة بدر- بقوة تفوق أضعاف أضعاف قوة المسلمين، وبلغت أبواب المدينة المنورة، فاستقروا على سفح جبل أُحد -الذي يبعد عن المدينة المنورة ما يقرب من خمسة كيلومترات- فأنس بن النضر ﷺ الذي لم يقدر له أن يشترك في بدر، هو الآن في معركة أحد بكل طاقاته وهمته، فلما حمي الوطيس كان أنس ﷺ يضرب أعناق كل من يقابله من الكفار يمنة ويسرة، ويغِير على الموت نفسه في كل موضع في سبيل إعلاء كلمة الله، ولكن الموت الذي سيبتلع هذا التوّاق إليه لا يتراءى في الأفق بعد.

أوشكت الحرب أن تضع أوزارها، وأنس محزون متألم من عدم فوزه بالشهادة.. وفي هذه الأثناء إذا بخالد بن الوليد يغير فجأة على المسلمين، فيقع الاضطراب في صف المسلمين، ويتشتتون حتى أُشيع أن الرسول الكريم ﷺ قد قتل، مما سبّب شدة الاضطراب في صف المسلمين، إلاّ أن أنس هو الوحيد من بين الصف لم يحرك قدماً إلى الخلف قط. إذ كان يلقى بنفسه على العدو، وهو يقول إن كان حقًّا قد مات رسول الله ﷺ فلِمَ تعيشون أنتم؟!... أنس بن النضر ﷺ العاشق للموت، التوّاق لشراب كأس الشهادة.. رفع يديه قائلاً: "اللهم إني أَعتذرُ إليك ممّا صنَع هؤلاء -يَعْنِي أصحابَه- وأَبرأ إليك ممّا صنَع هؤلاء -يَعنِي المشركين-".[2]

---

(١) البخاري، تفسير سورة الأحزاب (٣٣) ١٤٦؛ مسلم، الإمارة ١٤٨.

(٢) المصدر السابق.

نعم إن أنس بن النضر يبرئ ذمته ويبعد نفسه عما يعمله هؤلاء الكفار ويلتجئ إلى ربه تعالى. ثم ألقى نظرة إلى صفوف المسلمين المضطربة فاغرورقت عيناه، كان المنظر مؤلماً جدًّا بالنسبة إليه. صحيح أن العدو لم ينل منهم شيئاً ولكن ما شاهده من تفرق الصف وتشتُّته كأنه سهم مسموم أصاب صدره. فقال: "اللّهم إني أَعتَذر إليك مما صنَع هؤلاءِ..". ثم اندفع في صفوف العدو و لم يعقب، فلم يكن يدور في خلده لحظةً الخوف وليس في قاموسه كلمة "الخوف"، إذ كان يحب الموت أكثر من الحياة. فدارت رحى الحرب مرة أخرى. ورغم كل ما جرى فالنتيجة كانت أيضا لصالح المسلمين. إذ ترك العدو الساحة وولّى بعدده وعُدده. وما ترك غير الخسران والخذلان والضياع الكثير.. فولّى هارباً بنفسه لا يلوي على شيء، إذ ما كان لهم أن يفكروا بالعودة مرة أخرى للحرب وقد تعقبهم الرسول ﷺ مع ثلّة من المسلمين.

بلغ عدد شهداء أحد ما يقرب من سبعين شهيداً.. وكان من بينهم أنس بن النضر رضي الله عنه فوُجد فيه بضع وثمانون ضربة سيف وطعنة رمح ورمية سهم... حتى قالت أخته: فما عرفتُ أخي إلاّ ببنانه.[1] ونال أخيراً مرتبة الشهادة. والقرآن الكريم يذْكره ومن معه في هذه الآية الكريمة: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾(الأحزاب:٢٣). وكان أنس بن النضر رضي الله عنه من الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.[2]

ب. البراء بن مالك رضي الله عنه

لم يولّ سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه البراء بن مالك قيادة الجيش على الرغم من بطولاته الفائقة وبلائه الحسن في المعارك. ولما سئل عن السبب: قال: شجاعته.

نعم إنه كان شجاعاً وجريئاً إلى درجة قد يورد الجيش المهالك بإقدامه، فسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يولّـــه الجيش مع حبه الشديد له، خشية أن

(١) المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر.

تؤدي جسارته الفائقة إلى عدم الأخذ بالحذر.

هكذا البراء لا يَعرف الخوف. وقد شهد جميع الغزوات فضرب أعناق الكفار، فكان يتعقب الموت في كل مشهد، فإن لم يجده يتألم ويحزن ويرجع مهموماً من ميدان الحرب!

ولقد أصبح قاب قوسين من الشهادة في اليمامة، إذ لما لم تفتح أبواب القلعة، تسلق الأبراج ورمى بنفسه منها إلى داخل القلعة، والعدو يمطره بالنبال، فجرح جروحاً بالغة.. ولكن لم ينل في اليمامة أيضاً ما أراد.

إنه صحابي مستجاب الدعاء. وقد وصفه الرسول ﷺ بين جمع من الصحابة الكرام رضي الله عنهم "كَمْ مِن أشعَثَ أغبَر ذي طِمرَينِ لا يُؤبَهُ له لَو أَقسَم على الله لأَبَرَّه، منهم البَراءُ بنُ مالك".[1]

فكان الصحابة الكرام إذا تعسّر عليهم أمر لجأوا إلى البراء بن مالك للدعاء. وحدث هذا كذلك في الأهواز، المعركة التي وقعت بين المسلمين والفرس. إذ لما حدث التشتت في صفوف المسلمين كان الناس يرقبون البراء وينتظرون منه الدعاء للنصر، فرفع يديه قائلاً: اللهم اهزم العدو وانصرنا عليهم وأبلغني نبيك. فردد ألوف المسلمين آنذاك: آمين آمين لهذا الدعاء. فنظر نظرة وداعٍ لأخيه في الله أنس ﷺ بعيون تبرق كالبرق الخاطف لشدة فرحه وبهجته، فرمى الدرع ودخل صفوف العدو بسيفه المسلول، فهزم الله العدو وبدأوا بالفرار ونصر المسلمين عليهم. ولما عم الفرح المسلمين كان في أرض المعركة أسد هصور مضرج بالجروح يتملى المنظر الذي حدث بابتسامة رقيقة على شفتيه.. إنه منظر الوداع من الدنيا منظر الإنتصار الذي أطبق جفنيه عليه.. كان هذا الأسد الجريح البراء بن مالك ﷺ ينتظر استجابة الشطر الآخر من دعائه، بلوغه الرسول ﷺ.. وبعد قليل التقى الرسول ﷺ الذي أحبه أكثر من نفسه.

---

(١) الترمذي، المناقب ٥٤؛ ابن ماجة، الزهد ٤.

٥. الجهاد وسيلة لحاكمية الأرض

إن في يد المؤمن كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويهديه إلى سبيل الرشاد، فهو منبع عزّه وسؤدده. وأمامه القدوة الحسنة للبشرية جمعاء وهو سيد المرسلين ﷺ. فهو بهذا الكتاب المبين وبهذا الرسول الكريم، ذو حظ عظيم أكثر من أي أحد كان على ظهر الأرض قاطبة. ولهذا فهو المرشح الوحيد ليحكم الأرض كلها. والقرآن الكريم يعلّم المؤمن هذا المفهوم، والله سبحانه وتعالى ينتظر منه هذه النتيجة.

فالمؤمن هو الذي يردد دائماً: الله ربي، ومحمد نبيي، والقرآن كتابي، والجهاد في سبيل الله أسمى أمانيّ... لذا استقر في قرارة نفسه هذا المفهوم: إنني لا بد وأن أجعل من أمة الإسلام عنصر توازن بين أمم الأرض جميعاً. فإن لم يؤخذ كلامي أساساً بين القرارات التي تُتّخذ بين طبقات البشر، تُرتكب إذاً مظالم شنيعة، ويُذلّ الأعزاء، ويُعزّ الأذلاء.. ولهذا فلا بد أن يكون القرار والحكم صادراً مني، وأكون أنا عنصر الموازنة. وعلى الدول أن تحدق في اجتماعاتها إلى إصبعي أنا حيثما أشير، وأن يُقَدّم كلامي على الكلمات التي تطلق هنا وهناك. ولا يُتخذ قرار إلاّ بعد أخذ رأيي فيه...

فإذا ما بلغ المؤمن هذا الشعور والمفهوم فلا تستغل أية قوة استعمارية المسلمين، ولا يؤخذ ضدهم قرار الحصار. وهذا ما يريده سبحانه وتعالى من المؤمن وهو القائل: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء:١٠٥).

فالذكر يعني: النصيحة، أما هنا فيأتي بمعنى التوراة، أو اللوح المحفوظ في معنى أشمل. وعلى هذا المعنى يمكن أن توضح الآية الكريمة كالآتي: إن الله

سبحانه بعد ما كتب في اللوح المحفوظ ما كتب، كتب في الكتب المرسلة إلى الأنبياء مستنسخات من اللوح المحفوظ وهي: إن عباد الله الصالحين يرثون الأرض، أي العباد الصالحون هم الوارثون الحقيقيون الدائمون في الأرض. أما حاكمية الآخرين للأرض فهي عابرة خاطفة؛ إذ الحاكمية الدائمة على الأرض بالتجدد المستمر، إنما هي حاكمية العباد الصالحين، وما يتشكل منهم من أمم صالحة ومجتمعات صالحة. ولقد تقرر هذا قانوناً في اللوح المحفوظ، وسجّل في الزبور نقلاً منه. نعم، إن الزبور غير المحرف الذي أُرسل إلى سيدنا داود عليه السلام فيه هذا القانون.

أجل، ربما تظهر نظم -مما لا يرضى به الله- في الشرق والغرب ويظهر فراعنة ومتمردون في كل مكان، ولكن لفترة معيّنة ولمدة عابرة. فهذا لا يخالف القانون المكتوب في اللوح المحفوظ وفي الزبور، والذي أخبر عنه القرآن الكريم. لأن الميراث المذكور هو الميراث الدائم والحاكمية المستمرة لمدة طويلة. أما ظهور حاكميات غير الصالحين بين فترة وأخرى، فهو مبني على حكمة إلهية وهي إيقاظ المسلمين وتذكيرهم ليبادروا إلى الاتفاق فيما بينهم. وهذا قانون إلهي لا يقْدر على تبديله أحدٌ قط.

فذوو الأخلاق الفاضلة في عصرهم أو من لهم نصيب وافر منها هم الذين يكونون حكّاماً في الأرض. وجدير بالملاحظة أن المقصود بالأخلاق الفاضلة لا يعني التردد إلى المسجد أو ما شابه ذلك فحسب، بل هو الاتصاف بأخلاق النبي ﷺ في كافة مرافق الحياة. وبهذه الأخلاق يدرك الإنسان معنى الأشياء والحوادث وعلاقة الإنسان بالكائنات. وفيها أيضاً المحافظة على التوازن التام بين أغوار الأنفس والتفكر في أغوار الآفاق... وبمعنى أوسع: فالمصلحون في الأرض هم المرشّحون دائماً لإدراك الخلود.

ولا يمكن أن يحقق هذا المعنى الواسع للحاكمية، الذين يثيرون الإرهاب والفوضى في أنحاء العالم ويرتكبون الجرائم تلو الجرائم ويستغفلون الناس -

ولاسيما الشباب- بمشاكل سياسية، ويختلقون شعارات سياسية لجذب الرأي العام، ويعتدون بعقولهم تاركين الشورى فيما بينهم... هؤلاء لا يمكنهم قطعاً أن يؤسّسوا هذه الحاكمية -بمعناها الحقيقي- وسيفيقون من غفلتهم يوماً من الأيام عند شروق شمس الإسلام، وعندها يَندمون، حيث يدركون تخبطهم في ظلمات دامسة، فيعترفون بخطئهم.

نعم، إن الإنسان الذي خلق مكرماً سيجد الطريق السوي يوماً ما، إذ بخلافه يكون هذا القانون خطأ -والعياذ بالله- ومن المعلوم أن القانون لا يتبدل إذ: ﴿لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾(الروم:٣٠) إلاّ أنه سبحانه له قانون آخر وهو ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١). فالله سبحانه لا يُذلّ أمة عزيزة كانت تاجاً على الرؤوس إلاَّ إذا غَيرت الأمة ما في داخلها. فهذا القانون سار في المعنى الإيجابي والسلبي على السواء. لذا ينبغي الحفاظ على النفس، والتعمق فيها، والسعي لإدراكها. فمن كان يريد إحراز لقب الفاتح فليَفتح قلعة النفس أولاً، ومن استعصى عليه فتح الداخل لا يمكن أن يفتح شيئاً في الخارج.

إن بطرس الأكبر المعروف بجنونه، رسم للروس خطة مثالية، كانت خطته هذه موضع اهتمامهم دائماً، ويمكن أن نلخص قسماً منها بالآتي:

تجاوزوا حدود البلقان، أوقفوا توسع العثمانيين واقطعوا السبيل عليهم، بثوا الفتنة والشقاق في صفوفهم. إنـــزلوا إلى البحار الساخنة.. استولوا على أفريقيا وممالك خليج البصرة.. لا تفسحوا المجال للأوروبيين أن يستغلوا العالم الإسلامي ضدكم حتى لو دخلتم معهم في مفاوضات..

تمضي الوصية هكذا عموماً، وأصبحت هذه الوصية إلى أيامنا الحاضرة غاية الروس وهدفهم، حتى في عهد الشيوعيين.

أما وصية الرسول الأعظم ﷺ للمؤمنين، فهي القيام بدعوة سامية ولغاية جليلة، تلك هي حاكمية الإسلام على الحياة كلها لضمان سيادة الدنيا والآخرة.

فامتثال هذه الأمانة المقدسة ونشرها في آفاق العالم اليوم دَين في أعناقنا. فالمؤمن يعيش طوال حياته لأجل الغاية وسينطلق لبلوغها إلى البحر الساخن والبحر البارد، وسيُشعر بقوته وحاكميته في كل بقعة من الأرض حتى لو كانت منجمدات سيبريا ومجاهل أمريكا الجنوبية وصحارى أمريكا الشمالية. ذلك لأن الله ﷻ لا يقبل منه أن يظل تحت سيطرة الكفار ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾(النساء:١٤١)، إذ لو رضي المؤمن بها فهذا يعني أنه فقد كل ما يملكه من إسلام وإيمان. وعند ذلك لا حقّ له في الحياة، إذ تصبح حياته كلها ذلاّ ومهانة وبؤساً وشقاء، وستكون آخرته كذلك خزياً وعاراً. ولهذا فإن أقدس شعور يمتلكه المؤمن ويستحوذ عليه هو حاكميته على الأرض كافة.

ولقد كنا ردحاً من الزمن حكام الأرض، فما تحقق بالأمس يمكن أن يتحقق غداً، وما علينا إلاّ بذل الجهد والسعي المتواصل وحصر الهمة به، وفي الأقل نثير همة أُولي العزم من الرجال لوضع أهداف من أجل تحقيق الحاكمية.

آ. الحاكمية عند سيدنا موسى عليه السلام ومن قبله

لقد أظهر سيدنا موسى عليه السلام هذا الهدف، لبني إسرائيل المؤمنين به وهو المسؤول عن تربيتهم وتنشأتهم، ولكن لم تكن تلك الفئة أهلاً لهذا الهدف، إذ كانت أعينهم لا تبصر وآذانهم في صمم عن الحقائق التي نبعت من تلك الروح السامية، وهو الرسول المشحون بتجليات ربه الجليل في طور سيناء. والقرآن الكريم يبين موقفهم هذا بالآية الكريمة:

﴿قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾(المائدة:٢٤).

إن هذا الكلام كان يخاطَب به نبيّ كريم من أولى العزم من الرسل. وبنو إسرائيل قد نشأوا وترعرعوا بمفهوم الأرض الموعودة.. وقد حان الآن الوقت

وسنحت لهم الفرصة فلو بذلوا شيئاً من الجهد والتضحية لبلَغوا الهدف، ولكنهم أخلدوا إلى الأرض فآثروا الراحة والقعود. فلم تكن في نيتهم حتى التحرك من مواضعهم، ويتحاشون بذل أي جهد وجهاد. ولا شك أن لما يريدون نواله ثمناً، ولكن عزّ عليهم دفع الثمن. ولهذا التجأ سيدنا موسى عليه السلام إلى ربه الجليل عاجزاً عن القيام بشيء ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾(المائدة:٢٥). وكأنه يقول: لقد ضجرتُ من هؤلاء وسئمتُ منهم، فهم ذوو أرواح ميتة فاقدة لروح الجهاد، يفضّلون الدعة والراحة، خائرو العزيمة والغيرة. فأدعو ملتجئاً إليك يا ربي: فَافرُق بَيننا وبَين القَوم الفاسقين. فجعلهم الله يتيهون في صحراء التيه أربعين سنة ضائعين حائرين.

وهكذا تجري دعوة الرسل الذين يأتون من بعد موسى عليه السلام على نفس الشاكلة فنبي الله يوشع عليه السلام قد مضى على المنوال نفسه في الجهاد. وسيدنا داود عليه السلام كذلك.

نعم إن داود عليه السلام الذي كان جندياً في جيش طالوت قد تصدى لجالوت، وقتَله في ميدان الحرب. ولكن مع هذه النتائج كلها نرى أن الكثيرين من جنود طالوت يتخلفون في الطريق، ﴿قَالُوا لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾(البقرة:٢٤٩)، وما بقيَ غير قلة من المؤمنين الذين قالوا: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(البقرة: ٢٤٩) ينطلقون مندفعين نحو الموت مستحقرين الحياة الدنيا، فصدّقهم الله في دعواهم ولم يكذبهم وألحق الهزيمة بجيش جالوت، فطردوا العمالقة من مواضعهم، وتحققت أمنية بني إسرائيل، وهي الدخول إلى البيت المقدس.

ب. مفهوم الحاكمية على الأرض لدى الأمة المحمدية وجغرافيتها

لنُلق نظرة على سيرة المصطفى ﷺ، نراه قد أشعل في روح الصحابة

الكرام رضي الله عنهم أجمعين نور تلك الغاية المُثلى –الحاكمية على الأرض– والتي أوردنا أمثلة منها. وتسبق تلك الغاية، إقامة الحياة الشخصية على الحياة الدينية دوماً، وقد حقق الله لهم هذا العزّ والظهور بفتحه أبواب العالم أمامهم. وفي الحقيقة إن هذه الغاية والهدف هو معنى رسالة الرسول الكريم ﷺ، فلقد بعثه الله بالقرآن الكريم ليُظهره على الدين كله. كما تبيّنه الآية الكريمة:

﴿هُوَ الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدّينِ كُلّه وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً﴾(الفتح:٢٨). فلقد وعده الله سبحانه بفتح مكة —ولا يُخلف اللهَ وعده– وفُتحت مكة. ويفهم من الآية الكريمة أيضا أن الله سبحانه سيفتح له العالم كله، متى ما حان وقته. لأن ذلك ضمن وعد الله له أيضا، إذ يسود الإسلام على القلوب وتكون كلمة الله هي العليا في الأرض. ذلك النظام الذي يسبغ على الإنسانية جمعاء السكينة والأمان والاستقرار.

نعم إن الله ﷻ قد أرسل رسوله بهذا الدين الذي تتنور الأرض بنوره وتُعمّر الخرائب بهدايته.

فاالشاعر يحيى كمال يعبر عن هذا الشعور بالأبيات الآتية:

الأجَل لم يمهل السلطان العظيم

لكان فتح العالم للمجد والشأن المحمديّ

تغرق الأرض في أنوار ألوف المنائر

كلما فتح جناحاه بالروْح والريْحان المحمديّ

فمن يوقِد نار هذا التوق والاضطرام والوجد والشوق في وجدانه، يجعل الجهاد أسمى غاياته في الحياة وأعظمها بل يجعل الموت في هذه السبيل نعمة عظمى. ولا جرم إن لم يكن الفناء فلا بقاء. فالطريق الموصل إلى البقاء يمر من الفناء، والنهار يعقب الليل والربيع يعقب الشتاء، ومن ليس لهم ليل ولا شتاء في حياتهم إذن لا ربيع لهم ولا نهار.

نحن في انتظار أن ينشق النهار في أمتنا.. نعم تقيمون الليالي الطوال وتقتحمون المصاعب والعسير من الأمور، وتعبرون أنهار الدماء وتدعون وراءكم أمثال أحد من الجبال ثم تنعمون بفتح مكة والنصر في واقعة "جَالْدِرَان". ثم سيموت كل ذلك بعد شتاء قارس، بعد ليل بهيم، بعد اختلاج آلاف الأوجاع واجتراع آلاف الآلام. ولا جرم أن لكل وِلادة مخاضا، فالذين يريدون أن يذوقوا لذة الولادة عليهم أن يرضوا بآلام المخاض.

إن الله ﷻ قد وعد بظهور دينه، فالذين يحملون هذا الدين سيكونون أعزاء ظاهرين على الناس ما تمسكوا بدين الله، وسيظهر الله دينه حتماً، إن لم يكن في هذه الديار ففي ديار أخرى من العالم. لأن وعده قاطع لا ريب فيه. ولكنه متعلق بمدى ما تبذله الجماعة من الجهاد والعزم والثبات لتطهير الأرض من الفتن؛ يقول تعالى ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ﴾(البقرة:١٩٣) أي جاهدوا وقاتلوا حتى تُزال من فوق الأرض القلاقل والاضطرابات ويبلغ الإنسان إقليماً آمناً وسعادة دنيوية وأخروية معاً. بمعنى إن الجهاد لا يمكن تركه ما لم يعم الإسلام الأرض كلها، ولم تنعم البشرية بالأمن والأمان.

إن الرسول الكريم ﷺ قد أوقد هذا الشعور النوراني في روح الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين. ولنلق نظرة إلى جغرافية الأرض المنورة بنور هذا المشعل الوضيء.

إنه لم تمض على خلافة سيدنا عثمان رضي الله عنه خمس سنوات إلاّ وقد خضع معظم شمالي أفريقيا كله لحكم الإسلام. ومن الجهة الأخرى اجتاز جيش المسلمين بحر الخزر وفتحوا طبَرستان وعقب ذلك فتح ما وراء النهر. أي أن الإسلام بلغ سدّ الصين، بمعنى أن الله ﷻ قد أنعم على مسلمي ذلك العصر دولة تسع خمسين مرة مساحة تركيا. ذلك لأنهم لم يحرصوا على هذه الحياة

وابتسموا في وجه الموت. وأنتم كذلك متى ما استهنتم بالحياة وضحّيتم براحتكم وجعلتم الدين حياة لحياتكم وقال كل واحد منكم الموت خير لي ما دام الإسلام لم يحكم الحياة كلها، عندها سيتفضل الله ﷻ عليكم ويجعلكم حاكمين على الأرض. فالجماعة التي تكابد المشاق لأجل نصب الراية على قمم الأبراج وتعقد العزم على ذلك بنية خالصة لله، وتنشر على سطح الأرض حاكمية الإسلام ستندفع إلى السماء لنصب راية الإسلام هناك. فتكون بذلك قد أحرزت عناية الله ولطفه، فيرزقها سبحانه حاكمية العالم.

نعم إن حاكمية العالم لا تتحقق إلاّ بعد استكمال هذه النفوس الربانية بناءها وبذل أرواحها ثمناً لها.

الفصل الرابع

مُكتسَبات الجهاد

١. الجهاد ضمان الاستقرار الداخلي والخارجي

إن كل أمة تملك قوة معينة. فإنْ لم تبذل تلك الأمة طاقاها وقوها تجاه العدو الخارجي وبلوغ حاكمية الأرض، تحدث الاضطرابات والقلاقل في الداخل. حتى تبدأ المشاحنات بين الأفراد أنفسهم مما يؤدي إلى إراقة الدماء في الشوارع وتشاهد مناظر الجنائز في كل زاوية من البلاد. ولا تجد في هذه البلاد إلا الأرامل والثكالى اللائي يذرفْن الدموع على فقدان أولادهن وأزواجهن. فلا أحد يأمن على حياته حيث الفوضى والإرهاب يطالان حتى الشرف والأعراض.

والحال أن الأمة التي قدّر لها أن تكون حاكمة على الأرض أو في الأقل تكون عنصر توازن فيها، فلا محل للفتن الداخلية فيها إطلاقاً. حيث لا تتوثق عرى المحبة بين الأفراد إلا بالاتفاق تجاه العدو الخارجي فهي من الوسائل التي تقلل المشاحنات الداخلية إلى الحد الأدنى.

ولا بد أن نذكر هنا أمراً وهو: إن غايتنا وهدفنا الأساس ليس هو الحاكمية على الأرض لمجرد الحاكمية، ولا تحقيق الأمن والنظام في الداخل، بل هذه الأمور ثمرات ونتائج لغايتنا الأساس. أما غايتنا الأساس فهي إعلاء كلمة الله على الأرض قاطبة. ولا شك أنه لبلوغ هذه النتيجة من الضروري أن نكون أقوياء كأمة ونــزيل الموانع والعوائق في سبيلنا. وفي الحقيقة يجب ألاّ نخلط هذين الأمرين بعضه ببعض. نحن نريد القوة كي نستخدمها في سبيل إنفاذ أمر الله سبحانه وإلاّ فلم يخطر ولا يخطر ببال المسلم أن يحقق القوة لأجل الغلبة والقهر والتحكم والاستبداد.

إن أمة ترزح تحت الذلّ والهوان لا يمكن بحال أن تتمثل الحقائق السامية، فكيف لها أن تعرض هذه الحقائق إلى غيرها؟ وأنّى لغيرها أن تتقبل منها وهي تعاني الذل والهوان. لذا ينبغي أن نثبت قوتنا وطاقتنا على أعلى مستوى في جميع مرافق الحياة الأساسية التي توقف الأمة على قدميها قوية عزيزة. فجيشنا لا بد أن يزود بأحدث الأسلحة. ومرافق التربية والتعليم يجب أن تكون مهداً لأحدث الاكتشافات والعلوم. وقوى الأمن فينا يجب أن تكون لها من القوة ما يلقي الرعب في قلوب الإرهابيّين والفوضويين في العالم كله حتى تستنجد بنا الدول الأخرى لدفع ما يعجزون عن دفعه من الفوضى والاضطرابات عندهم. وأن يبلغ اقتصادنا شأناً نوزع من فضائله هدايا ومنحاً للأمم. نعم فلأجل أن نكون أهلاً لتحقيق الحقائق السامية ونتمثلها حقًّا ينبغي أن نكون حاكمين على الأرض وهذا شرط آخر لا يتحقق إلاّ بالجهاد.

إن المؤمن مضطر إلى دفع الظلم في أي مكان كان في العالم. لأن المؤمن عنصر توازن في العالم. ولهذا يبدأ بمحيطه أولاً ثم يجهد باحثاً عن وسائل لتوسيع هذه الدائرة، بهمة رفيعة عالية ترقب العالم كله من علوها، وتُخطط النظم والوسائل المتوافقة مع سموقها وشمولها.

لا شك أن المؤمن رحيم على الخلق كريم بهم، وهذا هو السبب الذي يجعله يضطرب قلقاً لإنقاذ الآخرين. حتى أنه يَحتمل في هذه السبيل كل أذى وجرح وإهانة، وهو سمح حليم. إلاّ أنه في الوقت نفسه كالطود الأشم أمام الفوضى والإرهاب حتى قد يضحي بنفسه في سبيل دفع آثارهما وتعدياتهما. والقرآن الكريم يثني على المؤمن بصفته هذه فيقول: ﴿أَعِزّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(المائدة:٥٤).

والمؤمن إذا اقتضى الأمر يجاهد جهاداً مادياً حفاظاً على شرفه وكرامته ويقف في صف أمن ونظام البلاد فيجاهد بنفسه وبأهله، شيخاً كان أو شابًّا

بل حتى بأطفاله إذا استوجب الأمر لحين تطهير البلاد من شبكة الفساد المنتشرة في أنحائها.

ذلك لأن المؤمن يعلم بفراسته الإيمانية أنه إذا أعطيت أقل فرصة للإرهاب الذي لا يعرف معنى للإنسانية والذي أحاط بالعالم كالحية الرقطاء فذلك يعني فتح باب في الغد إلى ما لا نهاية لها من التنازلات والمطاليب.

فالإرهابي الذي يبلغ مطلباً واحداً من مطالبه مهما كان هيناً، لا يكتفي به قطعاً بل يسعى لأخذ مطالب أخرى والإرغام على تنازلات أخرى، حيث التنازل يدعو إلى تنازل آخر وهكذا. فلئن وضع في يوم من الأيام شرفنا وأعراضنا ووطننا ككل بل كل مقدساتنا على مائدة المفاوضات فما ذلك إلاّ نتيجة أليمة -لكنها حقيقية- لهذا التنازل الذي أُعطي لأول مرة. ولهذا ينبغي للمؤمن أن يكون دقيقاً جداً في عدم التنازل منذ بداية الأمر ويكون حازماً صاحب قرار حاسم.

فلئن طالب الإرهابيون بغلق المحلات والدكاكين ليوم غد فالمؤمن يفتح محله منتظراً فيه حتى لو كان معذوراً -من جهة أخرى- لسد محله في ذلك اليوم. فهذا العمل يعدّ بالنسبة له أعظم جهاد لأنه يعني مجابهة الظلم، فكأنه يبصق بوجه الظالم. وهذا في نظره باب يُفتح له للشهادة. لأن الرسول ﷺ قد قال: "مَن قُتل دُون ماله فهُوَ شَهيدٌ".[1]

وإذا ما أتى الإرهابي المسلّح إلى باب دارك وطلب منك شيئاً ولو زهيداً جدًّا لا بد أن تقاومه بعدم إعطائك له هذا الشيء، لأن تحقيق مطلبه الأول يسوقه ليأتي في وقت آخر ويطلب أموراً أخرى وهكذا حتى لا يبقى لديك شيء وعند ذلك تندم أشد الندم لتفضيلك الحياة على الموت لدى تنازلك لأول مرة. فالعلاج الوحيد لهذا الأمر وللحيلولة دون السقوط في مثل هذا الذل بيدك أنت، إذ عليك أن تفضّل الموت الذي ترقى به إلى مرتبة الشهادة

---

(١) البخاري، المظالم ٣٣؛ مسلم، الإيمان ٢٢٦.

والسعادة الخالدة على بضعة أيام من الحياة الدنيا تقضيها في ذل وهوان.

إن أي نوع من أنواع الإرهاب والفوضى حالياً أجنبي المنشأ بلا شك، فهم يريدون أن يحوّلوا هذا الوطن الشبيه بالجنة إلى جحيم لا يطاق. ولا أسهل من إرغام دولة خارت قواها نتيجة الإرهاب والفوضى. وهذا ما يصبو إليه الأجانب. فهم يريدون أن تتحول هذه البلاد إلى مستعمرة يستغلّونها. والإرهابيون والفوضويون جميعهم ما هم إلاّ عملاء أولئك المستعمرين. ولكن لن يصلوا إلى مبتغاهم -بإذن الله- وسيحيق المكر السيئ بأهله. وهنا أمر مهم وهو أن الانشغال بالإرهابيين والفوضويين سيؤخرنا عن بلوغ ما نصبوا إليه من هدف. أليس هذا هو ما يريده أعداؤنا بالدرجة الثانية؟ إذ هم يخشون أن يصلب عود المسلمين يوماً من الأيام، فيصبحوا -أي الإرهابيون- كالحمُر المستنفرة فرّت من قسورة.

وهنا أمر لا بد أن لا يُنسى أبداً وهو: أن المسلم إذا اقتضى الأمر يكون مع قوى الجيش والأمن للدولة تجاه أي نوع من أنواع الاعتداءات الخارجية أو الداخلية، فهذا واجب عليه، ولا يمكن أن يتصور تركه لهذا الواجب. ويكفي أن تدعوه الدولة وتكلّفه بوظيفة كهذه. ولا شك أنه سيؤدي هذه الوظيفة متممة لعمل الدولة، وبخلاف هذا فإن أية حركة فردية تؤدي حتماً إلى تهيئة إرهاب آخر. فعلى المؤمنين أن يكونوا يقظين في هذا الأمر. إذ لا يملك الإرهاب والفوضى أي جانب شرعي، ولا بد أن تُجتث جذورهما.

وأحياناً تقوم الدول بإحداث الفوضى والإرهاب، كما تفعله أمريكا وروسيا والصين... فالوظيفة التي تقع على عاتق المؤمن حينذاك أن يستعمل كل طاقاته وإمكاناته إلى أقصى حد ممكن ويجابه الفوضى والإرهاب المفتعل. وعندما يبلغ الأمر إلى هذا الحد فمعنى ذلك أن الدولة قد أصبحت تحت رحمة الأعداء. وعندئذ فالواجب قد أُلقي إذن على كاهل كل فرد. أي أن الأمة ستؤدي حينذاك ما عليها من واجب وتضيف بطولة إلى بطولاتها

المذكورة في التاريخ. نسأل الله تعالى أن يبعد وطننا ومساكننا عن مثل هذه المواقف. ولكن لو قدر الله ذلك فما لنا من محيص غير هذا العمل. فالمؤمن دائماً هو من يفضّل "الموت عزيزاً" على "الحياة ذليلاً"، فلا يخيفه الموت. وعلى القوى الخارجية والدول التي تزود الإرهاب وتثير الفوضى أن تعلم هذا جيداً.

فالهروب من الجهاد وترك البلاد والمساكن تحت رحمة الأعداء صفة ذميمة لا ترد حتى في رؤيا المؤمن، فضلاً عن أنها دناءة وحقارة ينأى عنها المؤمن ويتجنبها. والقرآن الكريم يعلّم المؤمن طريق العزّ وما يجب عليه عندما يئن الضعفاء والمساكين من الرجال والنساء تحت الظلم والتعذيب وليس لهم طريق الخلاص إلاّ الدعاء.

تقول الآية الكريمة: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾(النساء: ٧٥) يا له من دعاء!! دعاء كي يخرجوا من ديارهم ومآويهم، ذلك لأن المسلمين استُضعفوا في تلك الديار. لقد انقطعت قوة الحق، ولكن الوطن هو وطنهم لا لغيرهم، وما فيه من مساكن ومآوى هي مساكنهم ومآويهم، على الرغم من هذا يريدون الخروج منها، لئلا يعانوا هذا الذلّ والمسكنة، وهذا الخضوع والخنوع. ذلك لأنهم حُرموا من أبسط حقوق الإنسان، أولئك الذين اغتُصبت جميع أموالهم بل كل ما يملكون، أولئك الذين ديست مقدساتهم بما فيها حرياتهم. وحيث أن المنظر يبين لنا هذا الوضع المفجع، يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ بحيث يهز المؤمن المخاطب هزًّا عنيفاً حيث تنـــزل عليه الآية الكريمة بالتقريع والتوبيخ تلو التقريع والتوبيخ.

إننا لم نقدر الحق حق قدره ولم نقدر على الاستجابة لدعوة القرآن

الكريم، ولم نصرف كل طاقاتنا في سبيل رفع رايته في جميع أنحاء العالم. لذا قُطّعنا أوصالاً، تفرقنا شذر مذر. وحيث إن وضعنا هو هذا الوضع الأليم، والأعداء يتكالبون علينا، ونحن نكتفي بالتفرج عليهم كيف يلتهموننا قطعة إثر قطعة دون مبالاة. ونقول -آسفين- أن العالم الإسلامي بأكمله يعاني هذا الوضع الذليل المهين، وكأن الحلول انتهت وفقدت كليًّا، فبقينا وحدنا بدون حل لمآسينا. كلا.. ثم كلا.. فإن أحاط الظَّلام بالمؤمن من يمينه وشماله ومن أمامه وخلفه فعليه أن يوجد نوراً لإضاءة تلك الجهات الأربع. وعليه أن يوثق صلَته بالله تعالى ويرتبط مع رسول الله ﷺ فيوجد من الأنوار ما ينير العالم أجمع ثم يهرع إلى عالمه الخاص فينيره أيضاً.

فليس للمؤمن غير ما سعى وغير ما بذله بنفسه. إنه يحصل على كل شيء بعرَق جبينه وبجهده وبمقاساته ومكابداته. ثم يتبنى قضيته بنفسه وفي النتيجة يكون قد أنقذ نفسه وأنقذ الإنسانية جمعاء.

فسواء أكانت القلاقل والاضطرابات ناشئة من الفساد الداخلي، أم من الأزمات الناجمة من الإرهاب والفوضى، أم من الضيق والقلق الذي يولده الاعتداء من الخارج، أم من الآلام التي تصيب المسلمين.. هذه البلايا وغيرها لا حل لها إلاّ بالجهاد المادي والمعنوي.

والخلاصة أن الجهاد هو ضمان استقرارنا الداخلي والخارجي. فالدنيا التي لا جهاد فيها فلا ضمان فيها ولا أمان.

٢. الجهاد يحول دون الذل والهوان

المؤمن إنما يعزّ بما يقدمه من جهاد داخلي وخارجي. وحينما يترك ما يترتب عليه من واجب، وتستهويه لذائذ الحياة وينحصر همّه في أذواقه الشخصية، يفقد المهابة والعزة، ويذل ويهان. فالرسول الكريم ﷺ يقول: "...وتَركتم الجهادَ سَلّط اللهُ عليكم ذُلا لاَ ينـــزعه حتى ترجعوا إلى دِينكم".[١]

وهذا يعني أن الحياة العزيزة إنما هي في تحمل بعض المشقات باسم الجهاد. والأمة عموماً تستحق هذه الحياة العزيزة عندما تقاوم وتثبت تجاه تلك المشقات. فلو ترك كل فرد منها الجهاد منغمساً في لذائذ حياته الشخصية عندئذ يحل العذاب الإلهي العام عليها فيصيب الظالم والمظلوم والبريء والمذنب. ولهذا لا بد للأمة من التمسك بالجهاد ككل، كي تحول دون نـــزول البلاء عليها بساحتها.

وأريد أن أبين هنا حديثاً شريفاً عن سيد الكونين ﷺ وهو:

"إذا تَبايَعتم بالعينة وأخَذتم أذْنابَ البقَر ورضِيتم بالزَّرع وترَكتم الجهاد سلّط اللهُ عليكم ذُلاَ لاَ يَنـــزعُه حتى تَرجِعوا إلى دِينـــكم".[٢]

وقد فسّرت العينة بشكلين:

أولهما: هو شراء بضاعة من أحدهم دَينًا، وبعد ذلك بيع البضاعة نفسها بثمن أقل إلى صاحبها الأول نقدًا. والغاية من هذا البيع هي: إن الشخص محتاج إلى نقود، وحيث إن أخذ النقود ودفعها بزيادة هو ربا. فيتوسل

(١) أبو داود، البيوع ٥٤؛ أحمد بن حنبل، المسند ٤٢/٢.

(٢) نفس المصدر.

بالعِينة لئلا يكون ربًا واضحًا. ويمكن أن نوضح ذلك بمثال: لنفرض أن أحدهم بحاجة إلى ثمانمائة ألف ليرة، فيبتاع بضاعة من شخص بمبلغ مليون ليرة ديناً، ثم يبيع البضاعة نفسها إلى الشخص نفسه بقيمة ثمانمائة ألف ليرة نقداً. فالظاهر أنها عمَلية بيعٍ وشراء إلاّ أنها عملية لا تفترق عن الربا، فلا تجوز قطعاً.

أما ما قبله أغلب الفقهاء من التفسير الثاني (للعينة) فهو:

إن العينة عبارة عن تطبيق للبيع المؤجّل. مثال ذلك: يأتي المُدان إلى المَدين ويبلّغه أنه لا يتمكن من دفع الدَّين لهذا الشهر. فيضاف مباشرة فرق الأجل إلى دينه.

فالرسول ﷺ يشير في هذا الحديث بتفسيريْه معاً إلى سوء الاستعمالات في الأمور التجارية، ويقول: متى ما استولى عليكم سوء الاستعمالات هذه فانتظروا الذلّ والخنوع.

أما الشطر الآخر من الحديث الشريف "وأخَذْتُمْ أذْنابَ البقَر ورَضِيتم بالزَّرع" فلا شك أن النقد الموجّه ليس إلى الزراعة، لأن الرسول الكريم يقول في حديث آخر "إنْ قامت الساعةُ وبيَد أحَدكم فَسِيلَة فإن استطاع أن لا يقُوم حتى يَغرِسَها فَلْيَفعَلْ"[1] وكذلك هو القائل "مَن أحيا أرضًا ميتَة فَهي له".[2] بمعنى أن الإسلام لا يطيق صبرًا على أرض ميتة، فلا بد أن تستغل وتحيا. فالحديث الشريف يشير إلى اختلال التوازن، لأن شريان الحياة الاقتصادية هو الإنتاج، فإذا ما حُصر الإنتاج في الزراعة وحدها وأُهملت التجارة والصناعة، معنى ذلك حدوث الخلل في الإنتاج. وإن التصور بحصول التقدم بالتوجه إلى الصناعة وحدها أو إلى التجارة وحدها ليس إلا تعبيرًا عن الخلل نفسه. ولهذا فالأمر الأساس هو إعطاء كل ساحة ما تستحق من الاهتمام... وبذلك يضمن التوازن في الإنتاج.

---

(١) أحمد بن حنبل، المسند ١٩١/٣.

(٢) البخاري، الحرث ١٥؛ أبو داود، الأمارة ٣٧.

ومن المعلوم أن الزراعة تكون في القرى، فأهل القرى إذا توجّهوا جميعهم إلى الزراعة، يعني ذلك توقف تقدم المدن كليًّا. وتوقف التوسع في المدن يؤدي حتمًا إلى مَوت التجارة والصناعة. ونقيض هذا هو زحف أهل القرى جميعهم -تاركين مزارعهم- إلى المدن الكبيرة وهذا يولد خللاً آخر. وما نراه في وقتنا الحاضر من توسع المدن الكبيرة بسرعة هائلة وحدوث مشاكل متناسبة مع تلك السرعة، وإخفاق الخدمات -سواءً تحت الأرض أو فوقها- وانتشار العطالة إلى أقصى حد.. كل ذلك ما هو إلاّ بضع أعراض للخلل.

إنه لا مفرّ من أن نكون تحت رحمة أعدائنا دائماً إن كانت النهضة والتقدم غير متوازنيْن، وظَلّ قِسم من الحياة الاقتصادية مرتبطاً بالخارج، حيث إن المؤسسات الصناعية والأمتعة التجارية والمنتجات الزراعية المرتبطة بالخارج... كل ذلك عناصر تهديد للحياة الاقتصادية. معنى ذلك أن الأصل هو إحداث التوازن في جميع الميادين.

وحيث إنه لم تحدث في عهد الرسول ﷺ مشاكل الهجرة إلى المدن بسرعة، لذا أشار الحديث إلى الخلل الاقتصادي بحصر النظر في الزراعة فحسب. أما في وقتنا الحاضر فقد جلبت الهجرة إلى المدن بكثرة وبسرعة مشاكل وأزمات حديثة. لذا فإن فكرة العَودة إلى القرى أو الاستقرار والإسكان فيها إحدى الحلول التي تفرض نفسها، وهو المفهوم من الحديث الشريف.

من جهة أخرى فالحديث ينطوي على انتقاد الرجوع إلى البداوة أو الإصرار في البقاء على البداوة، بعد التحضر. فهذا كله يورث المجتمع الذل والهوان.

أما الأمر الثالث الذي يفهم من الحديث الشريف هو «وترَكتم الجهادَ» أي عندما تنغمسون في أموركم الخاصة وتخلدون إلى الراحة، فإن الذل والهوان ينتظركم. أي كما إذا اسودّ وأظلم هواؤكم المادي، فهواؤكم

المعنوي أيضاً سيسْودّ، وتتكدر النجوم في سماء روحكم، وينخسف قمركم وتنكسف شمسكم. أي لا تسمح لكم الشريعة الفطرية بالعَيش على وجه الأرض.

فالله سبحانه وتعالى لا يرفع ذلك الهوان منكم مهما حاولتم في دفعه ومهما توسلتم وتضرعتم إليه ما لم ترجعوا إلى الدين.

تُرى كيف يكون الرجوع إلى الدين لأمثال هؤلاء؟ إن علينا وعلى كاهلنا في الوقت الحاضر حقوقاً هائلة تراكمت منذ عصور. فنحن في هذا العصر لم نوفّ حقوق أنفسنا بعدُ ناهيك عن الحقوق الأخرى. وكذا لم يتحقق في هذا الوقت ما ينتظره منا أهلنا وأمتنا وجيلنا من أمور. فلقد تراكمت على ظهورنا الضعيفة آثامٌ كثيرة وكثيرة جداً. فالمسلم المدرك في القرن العشرين ينسحق تحت هذه الآثام. نعم إنها ليست مسألة هينة، بل عسيرة وجادة. لأن في آذاننا صرخاتُ انهيار منذ ثلاثة قرون، فلن تهدأ هذه الصرخات بمعاناة ربع قرن فحسب. ولا شك أن المسؤول الأول في تردّينا إلى هذا الوضع هو أنفسنا نحن. فلا نجاة إلاّ بأنفسنا كذلك. فسوف نضغط على أنفسنا، ونضرم مشاعلنا بأيدينا ونتوجه إلى عناية الله، ونحقق هذا التوجه قولاً وفعلاً، فبمقدار قيامنا بهذا العمل تفتح أبواب الرحمة، فتنتشلنا يد الرحمة مما نحن فيه من وضع أليم ونصل بإذن الله إلى ساحل السلامة.

آ. أبطال اقتحموا العقبة..

كان الرسول الكريم ﷺ يجاهد العالم أجمع بجماعة، وأن كل فرد من تلك الجماعة كان يعلم جيداً ما يترتب عليه من واجب في أي صفحة من صفحات الحياة. فــ"أُحد" موقع تجلت فيه مناظر خالدة من هذا الشعور، فلقد بذلوا جميعاً ما عليهم من حق وواجب رجالاً ونساءً صغاراً وكباراً شيباً وشباباً، وبكل إخلاص وتفانٍ، حتى تبدل الموقف لصالح المسلمين.

يذكر أنس ﵁: إثنتان لم تغادرا نظري. الأولى: والدتي "أم سُلَيم" رضي الله عنها، والأخرى أمّنا "عائشة" رضي الله عنهما، كانتا تسرعان إلى المدينة فتأتيان بالماء إلى الجيش فترويان به. وما إن تنتهيا من ذلك حتى تتوجها إلى ضماد جروح الجرحى، وهكذا لم تفارقا هذا العمل طوال اليوم.

وفي هذه الأثناء جاءت عجوز، حتى يمكن أن يقال إنها مقعدة لا طاقة لها على العمل. أتت وهي تمسك بيد طفلها إلى النبي ﷺ. فما كانت تقدر على ضماد الجرحى ولا على غيره من أعمال الحرب، وإنْ كانت على شعور تام بما عليها من واجب. فكانت تريد أن تشارك في "أُحد" بالقدر الذي يتيسر لها وبأفضل وجه.

فلكَمْ يستحق هذا المنظر الجميل التأمل في وجه هذا الطفل والعجوز وشوقهما لخدمة الحق! إن السيف المعلق في كتف الطفل يكاد يلامس الأرض. إن جسمه صغير كاد ألاّ يحمل السيف بخلاف روحه التي تناطح السماء. قالت العجوز لرسول الله ﷺ: ليس لي ما أعطيه ولا طاقة لي بعمل. ولكن هذا ابني، أَهَبه لكم، كي يحارب ويدافع عنكم. فنظر الرسول ﷺ إلى الطفل الذي تبرق عينه منتظراً الجواب منه. فكأنه يقول بنظراته الثاقبة: ائْذنْ لي يا رسول الله أن أفديك بروحي. فالذي يطلب هذا الطلب النابع من صميم القلب، لا يمكن أن يُرفض. لذا قبِل الرسول ﷺ طلب هذا الطفل وضمّه إلى صفوف جيش المسلمين. فاقتحم الطفل بسيفه الذي هو أطول منه صفوف العدو، وكأنه قد كبر حالاً وتحوّل إلى شاب يافع. بيد أن "أُحد" كان ثقيلاً جدًّا، فما كان يتحمله إلاّ أمثال حمزة ﵁، وابن جحش ﵁، ومصعب ﵁.. إلا أن الطفل أيضاً قد أخذ على كاهله جزءًا من هذا الحمل الثقيل. ولكن هذا الجسد النحيف لم يتحمل ذلك الحمل الثقيل، فوقع على الأرض بضربات العدو –وبعد قليل سيتسابق مع الملائكة في طريقه إلى الله– فاحتضنوا هذا الطفل وحملوه إلى الرسول الكريم ﷺ كان قلبه يخفق

خفقان قلب الطير. ووجهه يشعّ بابتسامة وبهجة والفرح يطفح من عينيه، لأنه سيلقى بنفسه في أحضان الشهادة وسيغادر رياض "أُحد" التي تلتهب ناراً إلى سفوح الجنة.

قال الرسول ﷺ وهو يحدق بنظره الشريف في عيون الطفل التي تلمع فرحًا وسرورًا: أ تشعر بألم. والطفل يخشى أن يؤلم الرسول ﷺ فقال: لا يا رسول الله. وكأن الشمس الحزينة التي أوشكت على الغروب على "أُحد" تتهيأ للشروق مرة أخرى في وجه الطفل.[١]

"وقاتلت أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية يوم أُحد، فذكر سعيد ابن أبي زيد الأنصاري أن أم سعد بنت سعد بن الربيع كانت تقول دخلت على أم عمارة فقلت لها يا خالة أخبريني خبرك. فقالت: خرجت أول النهار أنظر ما يصنع الناس ومعي سقاء فيه ماء فانتهيت إلى رسول الله وهو في أصحابه، والدولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله فقمت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف وأرمي عن القوس حتى خلصت الجراح إلي. قالت: فرأيت على عاتقها جرحا أجوف له غور فقلت لها من أصابك بهذا؟ قالت ابن قمئة أقمأه الله، لما ولى الناس عن رسول الله أقبل يقول دلّوني على محمد، لا نجوت إن نجا. فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله فضربني هذه الضربة ولقد ضربته على ذلك ضربات ولكن عدو الله كانت عليه درعان".[٢]

استمرت المعارك إلى المساء. كان من الضروري الحفاظ على المدينة من الداخل. وكانت صفية كبرى عمات رسول الله ﷺ في المدينة، فانطلقت إلى "أُحد" حالما سمعت بجراح الرسول ﷺ. كانت ترمى نفسها كأم عمارة على المصيبة مخترقة صفوف العدو بعدما أخذت رمحاً من الأرض. لم يتحمل

---

(١) انظر: المصنف لابن أبي شيبة، ٣٧٠/٧-٣٧١؛ حياة الصحابة للكاندهلوي، ٥٩٨/١-٥٩٩.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ٨٦/٣-٨٧؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣٥/٤.

الرسول ﷺ هذا الموقف، فقال لابنها: "انطلق إلى أمك.. فهي امرأة". قاله خوفاً عليها، حيث كانت تواجه الكفار وتجعلهم يولّون الأدبار،[1] بمعنى: أنه إذا اشتد البأس فالمرأة كذلك تنهض بواجبها.

نعم، إن المؤمن سينطلق إلى الجهاد تجاه المصائب المقبلة سواء من الخارج أو من الداخل، ويوفي مسؤوليته حقها تجاه أهله ودينه ووطنه وأمته. ولا بد من جهاد بالنساء والأطفال والرجال والشباب والشيوخ فلا تبقى الجهود منحصرة في صفحات معينة من الحياة، بل في كل صفحة من صفحات الحياة.. وبكل مستويات المجتمع.. إذ بخلاف هذا فالهزيمة محققة مقدّرة لا محالة. فكما يحتضن المؤمن الحياة كلها، فالجهاد أيضاً معنى شامل كهذا يحتضن الحياة كلها.

ب. من أجل حياة عزيزة..

إن طريق الحياة العزيزة تمرّ من معرفة ما هو جدير بالموت. نعم، الموت في سبيل ما يُستَحَقُّ من أجله الموت. فإذا ما استسهلنا الموت في سبيل ما نحن مكلَّفون بالحفاظ عليه من أمورنا المقدسة، أو إذا استعددنا للموت في سبيلها سنذوق لذائذ الحياة الأبدية ولّما نغادر هذه الحياة الدنيا، فضلاً عمّا أُعدّ لنا في الآخرة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فالرسول ﷺ يستثير عشقنا للجهاد ويقوى من عزيمتنا في حديثه الشريف الآتي:

"لَولا أن أشُقّ على أُمّتي لأَحبَبتُ أن لا أتَخلّف خَلفَ سَرِيّة" "لَوددتُ أنّي أَغزُو في سبيل الله فأُقتَلُ ثم أَغزُو فأُقتَلُ ثم أَغزُو فأُقتَلُ".[2] فيا لها من مرتبة عظيمة وشرف رفيع سام، الموت في سبيل الله والجهاد في سبيله، وما أعظمه من وظيفة مقدسة جليلة حتى يرغب سيدُ المرسلين وسيد الكونين

---

(١) حياة الصحابة للكاندهلوي، ٢/٨٨؛ الإصابة لابن حجر، ٤/٣٤٩.

(٢) مسلم، الإمارة ٢٨؛ البخارى، الإيمان ٢٦؛ النسائي، الجهاد ٣.

والثقلين، وهو في ذروة الكمالات في أن يكون مع كل سرية في سبيل الله، علاوة على مهمة الرسالة العظمى التي يؤديها. ويتمنى أن يُقتل في هذه السبيل ثم يُحيا ثم يُقتل ثم يُحيا ثم يُقتل ثم يُحيا. فما أضيع إذن تلك الحياة التي لا جهاد فيها! وفيه هذا الشرف العظيم، الذي يطلبه ويحرص عليه كل ذي لب لا محالة.

فالأحاديث الواردة في الجهاد تلْفت النظر حقًّا، نذكر منها:

"عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: مَن مات ولَم يَغزُ ولَم يُحَدِّث به نفسَه مات على شُعبَة من نِفاق".[1] أي أن هذا الإنسان يسلّم روحه في وسط النفاق. وفي رواية أخرى: "مَن لَقيَ اللهَ بغَير أثَر مِن جِهاد لَقِيَ اللهَ وفيه ثُلمَةٌ"[2] أي إن مثل هذا يأتي إلى المحكمة الكبرى محمرّ وجهه من نقص يُخجله ويخزيه. إن بين أيدينا وأيماننا وشمائلنا الكثيرين جدًّا من المظلومين المعتدى عليهم الذين يئنّون تحت الظلم ويكابدون العذاب. ومثلما يجب أن نسعى لإنقاذ المظلومين هؤلاء كذلك من واجبنا أيضاً كفّ الظالم عن ظلمه. وإلاّ نَلقى رب العالمين ونجازى بما يفوق كل الآلام التي نراها في الدنيا. فأية شقاوة أكثر من لقاء رب العالمين بهذا الخزي والعار؟!

وفي حديث آخر للرسول الكريم ﷺ يذكر فيه ما يصيب الأمة من بلايا حتى يسأل الصحابي كل مرة: وهل هذا حادث يا رسول الله؟ يسأله وهو متعجب مما سيقع. ويجيبه الرسول الكريم ﷺ: بل يحدث أشد من ذلك...

"عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ كيف بكم أيها الناس إذا طغى نساؤكم وفسق فتيانكم؟! قالوا يا رسول الله إن هذا لكائن؟ قال: نعم وأشد منه. كيف بكم إذا تركتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟! قالوا: يا

(١) مسلم، الإمارة ١٥٧؛ أبو داود، الجهاد ١٧؛ النسائي، الجهاد ٢.
(٢) الترمذي، فضائل الجهاد ٢٦؛ ابن ماجه، الجهاد ٥.

رسول الله إن هذا لكائن؟ قال: نعم وأشد منه. كيف بكم إذا رأيتم المنكر معروفا والمعروف منكرا؟!".[1]

وهكذا تتبين أهمية ما نحمله من أمانة وتكليف. إن أعماق قلوبنا وأشد مواقعها شعوراً ورقة ترزخ تحت أثقال ذنوب وخطايا تراكمت منذ ثلاثة قرون مضت بل تئنّ من آلامها أنيناً موجعاً. ولا دواء لدائنا إلاّ بمكابدة دائنا لا غير.

إن الذهاب إلى الجامع لأداء الصلوات أحياناً وأداء فريضة الحج منابع طمأنينة لبعضنا. والحال إن ما نحن فيه من فظاعة الموقف لا يزيلها أداء تلك الفرائض حقها وحدها. ولا أظن أن لنا حلاًّ لما حلّ بنا من وضع مخيف إلاّ بإيفاء وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حقها غير منقوص. ولا شك أن إيفاء هذه الوظيفة السامية حقها موكل إلينا نحن أيضاً، نعم نحن فرداً فرداً، وإلاّ لا ننجو من مغبة السقوط في الهاوية التي وصفها الحديث الشريف، وقال إنها كائنة فينا بإعلام من رب العالمين، وكأنه وصف لأوضاع مجتمعنا الحاضر.

(١) مسند أبي يعلى، ١١/٣٠٤؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٧/٢٨٠-٢٨١.

الفصل الخامس

عَوائق الجِهاد

١. لا انسجام بين الجهاد والدعة

إن الذي يعيق الإنسان عن مهمة الجهاد هو الركون إلى الحياة والافتتان بلذائذها. فالذي لا يستطيع ترك راحته ولا يضحي بحظوظه الشخصية وأذاوقه الذاتية، لا يُنتظر منه مهمة جليلة كالجهاد، بل من العبث الانتظار. ذلك لأن المهام الجليلة لا ينهض بها إلاّ من يُضحي بمطامعه الشخصية وأذواقه المادية والمعنوية.

ان عشاق الجهاد يرغبون في العودة إلى صفوف الإنسانية ليسعدوهم بإدامة الجهاد حتى عندما تتفتح لهم أبواب الجنة على مصاريعها وتستقبلهم الحور العين ويستقبلهم الولدان المخلدون كاللؤلؤ المنثور.. هؤلاء العشاق هم الذين ينجزون المهام الجسام.

أعرض لكم هذه المسألة بجهتها الناظرة إلى الدنيا:

تصوروا مجاهداً يُسّر له الصعود إلى مقام عضوية البرلمان أو عُرِض عليه ليكون رئيساً للوزراء أو رئيساً للجمهورية. فهو يفضّل -حتى في هذا الموقف- أبسط خدمة تتعلق بمهمة الجهاد المقدسة على تلك العروض.

إننا ننتظر ونترقب هذا الإنسان منذ سنين طوال. هذا الإنسان الذي استوعب روح الجهاد وأشبع بعشق النضال والكفاح.

أما الذي لا يستطيع أن يضحي بأحاسيسه المادية وفيوضاته المعنوية ولم يعقد العزم من أول الطريق، فلا نأمل منه شيئاً، بل نقلق ونخشى من عواقب المشكلات التي ستأتينا منه حالما يظهر في الساحة. إن من لم يترك دنياه وعقباه، ولم يترك حتى التفكير في هذا الترك، ولا يؤمن بأن جميع لذّاته وأذواقه فيما يجاهد في سبيله في عشق مطلق ولذة مطلقة، ولا يجد لذته في

سعيه بالذات، ولا يستطيع القول: "ما أطْيب الموت في سبيلك يا إلهي"... لا نثق بجهاده ولن نثق، ولا نرى أنّ جهاده يكون مثمراً ولا يكون في سبيل الإسلام وإنقاذ الأمة. بل نثق بكفاح وجهاد الذين يدَعون متعهم الشخصية وحظوظهم النفسانية، ويتركون حتى مساكنهم وبلادهم دون أن يعقبوا على شيء كما فعله الصحابة الكرام، أولئك الذين استَعلَوا على شهواتهم وملذاتهم المادية. فهؤلاء هم الذين ننتظرهم منذ مدة ونأمل منهم الجهاد، ونعدّهم من أسباب العناية الإلهية.

ومقابل ما ننتظره ونأمله، ينبغي أن يكون ما يعمله إنسان اليوم باسم الجهاد والكفاح على النمط نفسه ومتوجهاً إلى الوجهة نفسها. أي يجب أن يجاهد وفق هذا المفهوم، وفي الحقيقة إن القرآن الكريم يذكّرنا دوماً بهذا النمَط من الجهاد، إذ يقول الله تبارك وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ۞ إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(التوبة:٣٨-٣٩).

أي أفيقوا وبلّغوا كلمة الحق، ودَعوا جانباً متع الحياة الدنيا وشهواتها الحيوانية والجسدية. في سبيل إعلاء كلمة الله في الآفاق ما لكم تتثاقلون إلى الأرض ولا تنفكون عنها وعن مطامعكم الشخصية وترضون بهذه الحياة الدنيا وتنبهرون أمامها. أرَضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة؟ أوَ أشفقتم على الحياة الدنيا التي لا تُغني شيئاً. سيزول ويأفل كل ما حولكم من شباب وصحة ومال وثروات، فليس في وسعكم الاحتفاظ بها، وستنطلق الحسرات والزفرات من أرواحكم وأنتم تتباعدون عنها. والحال تنتظركم العُقبى وديار الأبَدية والخلود، فلا زوال لنعيمها ولا نفاد للَذائذها وفوق ذلك مشاهدة جمال رب العالمين في كل أسبوع.. فبينما الأمر هكذا، أفَرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة؟

وهناك آية أخرى تشير إلى أن الدعة تعيق الجهاد.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾(التوبة:٤٢).

بمعنى أن لو كان ما يُدعون إليه فيه ما ينتفعون به من غنيمة قريبة، ومن سفر قريب فيه الراحة والدعة، لاتّبعوك ولَجاءوا معك دون شك ولا شبهة. ولكن الأمر خلاف هواهم ورغباتهم. فلا منافع مادية قط فيما يقصدون إليه، ولا مناصب ولا جاه يغنموها من هناك، فضلا عن أن الطريق طويل جدًّا. لذا سيفترق المؤمن عن المنافق هنا افتراقا تامًّا. وبينما المؤمنون يتبعونك من دون تردد يسعى المنافقون ليجدوا طرقاً للهروب ووسائل للتخلّف، ولا يجدونها إلاّ في الكذب، وبهذا يهلكون أنفسهم. حيث لا عائق أمامهم عن الجهاد كما يعلمه ويعرفه وِجدانهم. والأعذار التي ساقوها ما هي إلاّ لخداع أنفسهم. ولهذا يظل وجدانهم في قلق واضطراب. وقريبٌ هلاكُ مَن لا راحة لوجدانه.

إن معرفة الجو الذي كان يسود المدينة المنورة قبل "تبوك" لها أهميتها لمعرفة أبعاد المسألة. ولهذا سنبحث باختصار عن ذلك الجو:

رجع المؤمنون توّاً من سفر، وكانوا بحاجة إلى أخذ قسط من الراحة للتأهب لسفر جديد. وقد حان وقت حصاد الثمار. والجو شديد الحر. في هذا الوقت بالذات دعا الرسول ﷺ المؤمنين إلى السفر.

استجاب المؤمنون بما لديهم من غال ونفيس لهذه الدعوة. فأتى سيدنا أبو بكر بكل ماله إلى الرسول ﷺ. وخص سيدنا عمر الفاروق نصف ماله لهذا الغرض. وما بذله سيدنا عثمان لا حد له. أما سيدنا علي فقد أعطى قسماً من ماله سرًّا وآخر علانية وفق إدراكه الخاص للإخلاص. ودفع سائر المؤمنين ما يملكون كل حسب استطاعته. فدخل الجميع في سباق للبذل والإنفاق والمنافسة في الخير بآخر ما يملكونه. والنساء اشتركن أيضا في هذه

المسابقة للخير حتى امتلأت حجرة أمّنا عائشة رضي الله عنها بحاجات نسائية. إذ قدّمن ما يملكن من حليّ؛ فمنهن من نـــزعن قلادهن وأسوارهن وأقراطهن وقدمنها لهذا الخير العظيم. وهكذا كانت إجابة المؤمنين لدعوة الرسول الكريم ﷺ.

أما المنافقون فكانوا يشترطون لإجابة دعوة الرسول ﷺ بألاّ يكون السفر طويلا ولا الجو حارًّا، ولا يكون في موسم الحصاد.

ومنهم من يأتي باقتراح آخر فيستأذن الرسول ﷺ، وكان "جَدّ بن قيس" من هؤلاء... كان يسرع إلى الصلاة بمجرد سماعه الأذان، ولكنه لم يتمكن من غرْز الإيمان في أعماق قلبه، وتحويله إلى إذعان، ولم يترفع عن أهواء نفسه. فعجز عن أن يعزم على الانخراط مع المضحّين... أتى إلى الرسول الكريم ﷺ وكان الرسول يعالج فرسه بيده الشريفة، وعندما شاهد قَيساً قال: حتى أنت لا تأت معنا؟ إذ لم يكن ممن يُنتظر منهم التخلّف. ولكنه لا يأتي بل يحال دونه. فلا يمنحه الله هذا الشرف العظيم، كان وقحا قليل الحياء فتقدم إلى الرسول الكريم ليستأذنه قائلا: "يا رسول الله، أوَتَأذن لي ولا تَفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن". والقرآن الكريم يوضّح أمره هذا بالآية الكريمة الآتية ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾(التوبة:٤٩).

وجاء آخرون ﴿وَقَالُوا لاَ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ فكان جواب الرسول ﷺ هو جواب القرآن ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾(التوبة:٨١). فالذين قاسوا المشقّات وتجشموا الصعاب وتجرعوا الآلام في الدنيا سيكونون في مأمن عن النار في الآخرة. أما الذين أمضوا حياهم الدنيوية في الملذات واستمتعوا بها سيعرضون على النار هناك ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾(الأحقاف:٢٠).

نعم، القرآن الكريم يستنفر المؤمنين جميعا للجهاد، وسنكون من الفائزين أو الخاسرين حسَب استجابتنا لهذه الدعوة. فإما نقول: عسير علينا ترْك لذائذ هذه الحياة كما قاله المنافقون. أو نعمل بمثل عمَل الصحابة الكرام الغرّ الميامين فنأتي بما لدينا ونتأهّب للجهاد.

أمثلة من الرسول الكريم ﷺ وصحبه الأطهار حول ترك الدعة والراحة

لأجل الفوز بالدنيا والعقبى يترك الرسول الكريم ﷺ بيته وبيت الله المعظم الكعبة الشريفة مركز الأرض، ويترك مكة المكرمة التي عاش في أكنافها وقابل الفيض الإلهي المقدَّس في أجوائها وفي جبالها ووِديانها، ويترك غار حراء الذي عانق فيه السماويّين.. يترك كل هذا ويعلمنا كيف ينبغي للمؤمن أن يترك أحبّ شيء عنده في سبيل دعوة جليلة مقدسة. وحينما أخرجه قومه من مكة المكرمة لم يكن في حالة روحية أليمة لتركه ما وراءه، بل كان ينظر بأمل ونشوة إلى ما يقابله في أفق المستقبل.

العدوّ يتربص به الدوائر ويتعقبه خطوة خطوة ويحيط به من كل جانب كحلقة من نار حتى بلغ به الأمر الاختباء في غار "ثوْر"، ومن هناك يتوجه الحامل الأبدي للدعوة العظيمة إلى المدينة المنورة ليبني الصرْح السامق ويستقبل الإنسانية جمعاء. ولأجل هذا كان في كل آن يسيح في حضن موت جديد وكأنه يجابهه في كل زاوية وفي كل ساحة وميدان. ولكن لم تستطع هذه العوائق كلها من أن تورث فيه اضطراباً أو قلَقاً قط. وحتى عندما كانت أقدام الأعداء تشاهد من الغار الذي اختبأ فيه، كان سيدنا أبو بكر ﵁ يقلق لأجل رسول الله ﷺ إلا أنه كان في اطمئنان بالغ كما يصفه أبو بكر ﵁ "كان يبعث طمأنينة كأنه بين أصحابه الأمناء". ثم ما الداعي إلى القلق والاضطراب؟ فلئن كان الله سبحانه يريد أن يأخذه من هذه الدنيا فسيأخذه إذن من تحت عبء عظيم وسيرسله إلى عالم الراحة والطمأنينة.

فلمَ يضطرب؟ ألا ينجو من دنيا كل شيء فيها زائل إلى عالم كل شيء فيه باق؟ أليس الله معه كل حين؟ ألا يراه ويرى كل أحواله كل آن؟.. ولهذا خاطب أبا بكر بـــ"ما ظَنُّك باثْنَين اللهُ ثالثُهما"[1] بمعنى أوَ تظن أن محمداً وأبا بكر وحيدان فريدان؟ كلا إن الله معنا. هكذا كان يقول لأبي بكر ولا يخاف قط. بل لو عاداه أهل الدنيا كلها لم يغتم و لم تنل الدنيا منه شيئاً قط. بل لو تركه الناس كلهم أجمعون وحتى أبا بكر لكانت ثقته بالله واعتماده عليه تملآن قلبه اطمئنانا به، فالله سبحانه وتعالى يؤيده بجنود لا نراها.[2]

نعم، إننا لا ندرك كيفية أولئك الجنود ولكن ندرك الحقيقة الآتية وهي: إن الرسول الكريم ﷺ كان مؤيَّداً بجنود الله مرات ومرات.[3] وما معركة "بَدر" إلاّ أنشودة هذا التأييد. فمثلما يُطلق على الصحابي الذي اشترك في بدر إنه من "أصحاب بدر" كذلك يطلق على المَلَك الذي اشترك فيها أنه من "ملائكة بدر" "عن مُعاذِبنِ رِفاعةَ بنِ رافعٍ الزُّرَقِيِّ عن أبيه –وكان أَبوه من أهل بَدرٍ– قال: جاء جبريلُ إلى النبيِّ ﷺ فقال: ما تَعُدُّونَ أهلَ بَدرٍ فِيكُم؟ قال: مِن أَفضل المسلمين أو كلمةً نَحوها. قال: وكذلك مَن شَهِدَ بَدرًا مِن الملائكة".[4]

يذكر صحابي جليل إحدى تلك البطولات الفريدة الخارقة بالآتي:

"بينا رجل من المسلمين يشتد –يسرع– في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم. إذ نظر إلى المشرك أمامه، فخر مستلقياً. فنظر إليه، فإذا هو قد خطم أنفه، وشق وجهه كضربة السوط.."[5] وعندما ذكر الحادث للرسول الكريم ﷺ

---

(١) البخاري، أصحاب النبي ٢؛ مسلم، فضائل الصحابة ١.

(٢) انظر: البخاري، تفسير سورة التوبة ٩؛ أحمد بن حنبل، المسند ٤/١.

(٣) انظر: سورة التوبة:٢٦؛ مسلم، الجهاد والسير ٥٨.

(٤) البخاري، فضائل أصحاب النبي، ١١.

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٣/٥٦٠–٥٦١؛ مسلم، الجهاد والسير ٥٨.

قال: "حيزوم" اسم فرس جبريل والذي ضرب السوط هو. فكان جبريل قد تعمم بعمامة صفراء كعمامة الزبير بن العوام ويضرب يمنة ويسرة".[1]

وفي أُحد افتقد الرسول الكريم ﷺ مصعب بن عمير، وكان أمامه مصعب يقاتل بين يديه. وعندما آلت الشمس إلى الغروب وولى الكفار، قال الرسول ﷺ: "أقدم يا مصعب"، فقال له عبد الرحمن: يا رسول الله! ألم يُقتل مصعب؟ قال: بلى، ولكن ملَك قام مكانه وتسمى باسمه.[2] وهكذا يفهم كيف أن الله يؤيده بالملائكة. نعم إن الله سبحانه وتعالى ما ودّع حبيبه ﷺ وما قلاه قط.[3] وفي حُنين لم يتركه الله عز وجل في تلك الآونة الحرجة جدًّا دون تأييد من الملائكة.[4]

إن أغلب الذين يتخلفون عن الجهاد إنما يتخلفون عنه خوفاً على الحياة. والحال لا يُترك قطعاً من يسير في هذا الدرب ويدرج في هذا السبيل ولا يبقى وحيداً فريداً كما لم يُترك وحيداً قُدوتنا العظمى ومفخرة الكونين في أحلك الأزمان وأحرج الأوقات.

إن من يستسلم لله حق الاستسلام لا يقلق أدنى قلق ولا يضطرب قطّ، لأنه يعتقد: "أنني مؤمن بالله، فهو معي، لا داعي إذن للتوتر ولا إلى التسيب. فلا يخيفني شيء أبداً مادام الله الذي لا إله إلا هو له الملك وله القدرة المطلقة ظهيري ونصيري". فما ينبغي التردي إلى هاوية التردد كما تردى فيها اليهود. إذ لما استُنفروا للجهاد عصَوا نبيهم لما ساورهم من قلق بلا سبب فأبدوا عدم الاطمئنان بالرب الجليل. وإن تخلّفهم الذي كان لتخوف لا معنى له لم يفدهم شيئا غير جلب ما يُتخوف منه. فنالوا صفعة تأديب خلاف مقصودهم، فتاهوا أربعين سنة في الصحراء.

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي، ٨٣/٦.

(٢) مصنف بن أبي شيبة، ٣٦٩/٧؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٢١/٣.

(٣) انظر: سورة الضحى:٣.

(٤) انظر: سورة التوبة:٢٦.

ونحن إن كنا نريد أن ينتهي ما نحن فيه من تيه واضطراب نقاسيهما طوال ثلاثة عصور خلت، علينا أن نعود إلى هويتنا الأصيلة وشخصيتنا الذاتية في ظل تربية الحقيقة الأحمدية عليه الصلاة والسلام، ونسعى للاندماج بالإسلام.. نعم، نسعى كي ينجينا الله تعالى مما نخشى منه ونضطرب فيه. وسيجعلنا سبحانه وتعالى أعزاء كرماء مادُمنا لا نركن إلى المنافع المادية كثيراً ولا نشغفها حبًّا ولا ننكس رؤوسنا أذلاء أمام مطامع الدنيا بل ندير ظهورنا إليها وإلى أذواقها ولذائذها.

من الناس من يضحي بآخرته من أجل نعَم الدنيا ولذائذها؛ ومنهم من يجعل دنياه كلها في سبيل آخرته، فالمؤمن هو هذا. فهو يستخدم كل ما منحه الله سبحانه له في الدنيا في سبيل إعمار آخرته.

المؤمن هو من يعيش لدينه. فإذا أصبح الدين مهيمنا على العالم ومسيطرا عليه وجعل الأرض تحت حاكميته فعندها تكون لحياته معنى. وإلاّ فالحياة المعيشة ليست إلاّ عبئاً ثقيلاً. المؤمن لا يحب نمط حياة لا يهيمن عليها دينه. بل يقول: "تبًّا لمثل هذه الحياة". فالمؤمن الحق يترنم ويستشعر دائماً صدى هذا القول:

"لقد ضحّيت حتى بآخرتي في سبيل تحقيق سلامة إيمان المجتمع، فليس في قلبي رغب في الجنة ولا رهب من جهنم، فليكن سعيد بل ألف سعيد قرباناً ليس في سبيل إيمان المجتمع التركي البالغ عشرين مليوناً فقط بل في سبيل إيمان المجتمع الإسلامي البالغ مئات الملايين. ولئن ظل قرآننا دون جماعة تحمل رايته على سطح الأرض فلا أرغب حتى في الجنة، إذ ستكون هي أيضا سجناً لي، وإن رأيت إيمان أمتنا في خير وسلام فإنني أرضى أن أُحرق في لهيب جهنم، إذ بينما يحترق جسدي يرفل قلبي في سعادة وسرور."(١)

فهذه كلمات من استعلى على رغبات النفس الأمارة. ومن المعلوم أن من استعلى على رغبات نفسه وحظوظها لا يحول دون مقصده شيء.

---

(١) سيرة ذاتية لبديع الزمان سعيد النورسي، ص: ٤٥٧.

٢. علاقة الجهاد بالأِستعلاء على الحياة

إن العزوف عن الحياة مرتبة أعلى من ترك الدعة والراحة وهو الآخر شرط مثله لمن يريد الجهاد في سبيل الله وضمن مرضاته ووفق موازينه. أجل إن جهاد الذين لا يستطيعون استصغار الحياة ويعجزون عن رؤية العقبى واضحة كرؤيتهم للدنيا، من الصعوبة جدا أن يعيشوا الجهاد بكل أبعاده. والدليل على هذا من خير القرون:

"قال عليّ رضي الله عنه: لما انجلى الناس عن رسول الله ﷺ يوم أحد نظرت في القتلى فلم أر رسول الله ﷺ فقلت والله ما كان ليفر وما أراه في القتلى ولكن أرى الله غضب علينا بما صنعنا فرفع نبيه ﷺ فما في خير من أن أقاتل حتى أقتل فكسرت جفن سيفي ثم حملت على القوم فأفرجوا لي فإذا أنا برسول الله ﷺ بينهم".[١]

نحن مضطرون للمشاركة في الحياة الاجتماعية غير غافلين عن الجهاد المستميت المستديم. مضطرون إلى جهاد لا يُبغى من ورائه غير مرضاته سبحانه، مشحون بـــ: "ليس في قلبي رغب في الجنة ولا رهب من جهنم". وينبغي أن تكون أنبل غايتنا التضحيةُ بكل ما نملك في هذا السبيل. مرددين ما قاله ثابت بن الدحداح يوم أُحد والمسلمون أوزاع: "يا معشر الأنصار إليّ إليّ إن كان محمد قد قتل فإن الله حيّ لا يموت فقاتلوا عن دينكم".[٢] فعلينا أن نغادر هذه الدنيا كما غادرها بابتسامة مشرقة مستنشقاً ريح الجنة دون أُحد.

---

(١) مسند أبي يعلى، ٤١٥/١؛ وانظر إلى: حياة الصحابة للكاندهلوي، ٥١٥/١-٥١٦؛ الإصابة لابن حجر، ١٩١/١؛ صفة الصفوة لابن الجوزي، ٣١٣/١.

(٢) حياة الصحابة للكاندهلوي، ٥١٦/١؛ صفة الصفوة لابن الجوزي، ٦١٦/١.

إن استصغار الحياة بكافة مرافقها وإقامة التوازن بين الدنيا والعقبى بإعطاء كل منهما درجة من الإهتمام على قدرهما هي الحياة المثلى والعيش اللائق للمسلم. إذ تنحل كل الأمور بعد إقامة هذه الموازنة. فالأساس هو إقامة هذا التوازن باختيار الأولى والألزم لدى مواجهتنا الدنيا والآخرة معاً وبمقدار ما يتركان من ثقل في وجداننا. وهذا يقتضي تقييم الدنيا بقدر قيمتها والآخرة بقدر قيمتها.

فالذين يستطيعون إقامة هذا التوازن لا يغشاهم خوف أو قلَق. فلو انفلقت الدنيا على رؤوسهم لَما اضطربوا، ذلك لأن الخوف والقلق إنما ينشآن من عشق الدنيا والهيام بها بينما هؤلاء يستخفّون بالحياة. فلا ينتاب القلق والاضطراب من يعلم أن الحياة عابرة فانية. وأن الربح والفوز هو في دار الآخرة، فيجب بذل الجهود للحصول عليها. حيث الشوق إلى الآخرة نبع فياض مبارك للشجاعة والإقدام.

انظروا إلى هذا المثال: لقد ضحّى المسلمون بسبعين شهيدا في أُحد، والباقون أُثخنوا جروحاً. وهكذا رجعوا إلى المدينة. حتى كان الرسول ﷺ معصوب الرأس من جرح أصابه، والجميع منهكو القوى لا يقدرون على حمل سلاح. في هذه الأثناء إذا بخبر يشاع بين الناس مفاده أن أبا سفيان سيأتي مع جيشه إلى المدينة مرة أخرى. وما أن بلغ رسول الله ﷺ هذا الخبر حتى أمر بالخروج لطلب العدو و"أن لا يخرج معنا أحد إلا حضر يومنا بالأمس". لم يتوان أحد قط عن إنفاذ الأمر. علما أن بعضهم قد فقد ذراعه وآخر فقد ساقه ورجله ولكنهم جميعا حضروا منتظرين في مكان التجمع، بل كان منهم من أتى زحفا. إذ لما كان الأمر هو الخروج للجهاد فلِمَ يقعد صحابي في زاوية ولِمَ يتخلف. لأنه ما من أحد منهم جبن أو أصابه الخور، على الرغم من أجسامهم المثخنة بجروح استنفدت طاقتهم ولكن أرواحهم كانت تطير بأجنحة الشوق. والقران الكريم يبين وضعهم بالآتي:

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾(آل عمران:١٧٣).

لقد ترك هذا الخروج أثره في صفوف العدو حيث ولّوا مدبرين و لم يعقّبوا على شيء لما ظنوا أن المسلمين قد خرجوا لطلبهم بمدد جديد. وهكذا سجل حفنة من الأُسود المضرجين بالجروح بجسارتهم سطورا ذهبية في التاريخ، فغدا المسلمون منتصرين في أُحد كذلك.[١] حقا إن المسلم هو الفائز دائما. إذ يفوز بإحدى الحُسنيَين فيصبح شهيداً أو مجاهداً أو يصون عزّته وكرامته فيفوز أيضا. سأورد هنا إحدى مشاهداتي:

في غضون أيام الإرهاب والفوضى التي ضربت أطنابها في البلاد. حتى بدأ الإرهابيّون يفتّشون السيارات العابرة ويتخذونها ترسا لهم تجاه قوّات الجيش والشرطة. ولما أرادوا مرة حجز شاحنة مارة واتخاذها ترساً، إذا بسائق الشاحنة -ولا نعلم مبلغ إيمانه ودينه- يخرج عليهم وليس بيده سوى عصا غليظة فيشتت عشرين منهم أيما تَشتيت. هكذا المسلم مضطر في سبيل صيانة عزته وكرامته أن يبدي جسارة كما أظهرها هذا السائق صيانة لماله وعرضه وشرفه. وعلى المسلم أن يعرف كيف يتصرف تجاه الأعداء، فلا يستسلم للإرهابي ولا يقبع في بيته في خوف ووجل، بل عليه أن يكون معاوناً على الخير معينا على الحق.

ولأجل ألا نفسح المجال لتأويلات وتفسيرات خاطئة لا بد أن أوَضح أمرا: إنني لا أقول لأحد -أيًّا كان- تسلحوا وجوبوا الشوارع والأزقّة، لا أقول هذا قطعا. وإن ما أقصده هو أن الخوف والقلق غير وارد لمن آمن بالله.

وإذا أردنا أن نبين مثالا لهذا فسيّدنا الزبير بن العوام رضي الله عنه في مقدمة الأمثلة:

كانت أزقة مكة في يوم من الأيام تهتز بخبر مذهل يصدم الناس كلهم.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير، ٤٩/٤.

فقد أُشيع أن محمدا الأمين قد قتل. الجميع في حالة حيرة وذهول لا يعرف كيف يتصرف، غير غلام لا يتجاوز الإثني عشرة سنة من العمر يركض من زقاق إلى آخر وبيده سيف يجره. هذا الغلام هو الزبير بن العوام الذي حظي بعد مدة بلقب حواري رسول الله ﷺ وهو ابن عمة رسول الله صَفيّة وذلك بقوله ﷺ: "إنّ لِكلّ نَبيّ حَواريّا وحَوارِيَّ الزُّبَيرُ".[1] كان ينتقل هنا وهناك كالمجذوب، ولم يكن أَحد يعرف ماذا يريد أن يصنع. وأخيرا وفي إحدى الأزقّة إذا به أمام رسول الله ﷺ فقال له: "إلى أين يا زبير؟". فاضطرب الزبير إذ كان يظن أن سيّد الكَونَين رسول الله قد قتل. فقال: اذهبُ إلى قتل من أراد قتلك. فسأله رسول الله بابتسامة: بمَ ستقتل من أراد قتلي؟" قال وهو لا يكاد يرفع السيف بيد واحدة فاضطر إلى رفعه بكلتا يديه: بهذا السيف يا رسول الله. أجل إن الزبير قد انطلق إلى الأزقة حاملا سيفا لا يستطيع حمله، ذلك لأنه يعلم ان لا قيمة لحياة لا تنطوي على محبة رسول الله. فكل حياة بعد حياته لا قيمة لها.[2]

نرى في اليمامة أيضا منظرا آخر في الزهد بالحياة. منظراً مهيباً لمن توجه إلى الآخرة. كان عمّار بن ياسر قد بلغ من العمر مبلغا ولكن ما كان يقول "لقد كهلت فلا حرج علي". كانت الحرب قد استعرت على أشدها وبدأ الانحلال يطرأ على اليمين والشمال فإذا بالمسلمين يسمعون صوتا مألوفا لديهم ليس غريبا عليهم، يقول: "أيها المسلمون أَهُروبا من الجنة؟ فها أنا عمّار بن ياسر".

«عن عبد الله بن عمر قال: رأيتُ عمّار بن ياسر يوم اليمامة على صخرة وقد أشرف يصيح "يا معشر المسلمين أَمِن الجنة تفرّون أنا عمار بن ياسر هلمّوا إليّ" وأنا أنظر إلى أذنه قد قطعت فهي تدبدب وهو يقاتل أشدّ القتال».[3]

---

(١) البخاري، الجهاد ٤١؛ مسلم، فضائل الصحابة، ٤٨.

(٢) أنظر: أسد الغابة لابن الأثير، ٢/٢٥٠؛ كنــز العمال للهندي، ١٣/٢١١.

(٣) أسد الغابة لابن الأثير، ٤/١٣٤؛ حياة الصحابة للكاندهلوي، ٢/٤٥.

أجل لقد صدق قائد هرقل عندما قال: "أيها الملك لا طاقةَ لنا بهؤلاء، إنهم يحرصون على الموت كحرصنا على الحياة، ويحبّون الآخرة كحبنا للدنيا.."

لم يظفر عمار بما كان يتوق إليه في اليمامة. فقد قال له الرسول الكريم ﷺ "إن آخر شراب تشربه لبن.."[1] وعمار كان يتوق إلى هذا اللبن، لا يدري أهو في مؤتة أم في اليرموك أم في اليمامة فيخوض حربا إثر حرب. ولكن لم يحْظ بالموت في كل هذه الحروب حتى بلغ صفّين وأخذ موضعه في صف سيدنا علي رضي الله عنه وقد تجاوز التسعين من العمر آنئذ واشتعل رأسه شيبا وكأنه من نور لا يُرى فيه شعر أسود. حارب حتى المساء وعندها قال: "أليس شيء للشرب" فقدموا له قدحا من لبن، وما أن رأى اللبن حتى قال هذا آخر رزقك يا عمّار، لأنه قد سمعه هكذا من رسول الله ﷺ وبعد قليل شاهد الناسُ أُفول شمس أخرى مع أفول الشمس، هذه الشمس ستشرق على سفوح الجنة. عمار لا يعرف الموت. إذ كان على يقين أن الأجل لا يتأخر ثانية ولا يتقدم[2] والقرآن الكريم يبين هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ ٱلآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾(آل عمران:١٤٥).

أجل إن الله سبحانه وتعالى قد عيّن أجل كل مخلوق مذ خلقه. فكل يموت عندما يحين أجله. سيدنا عمر رضي الله عنه توفى بطَعنة وهو يصلي بالناس مع أنه قد خاض حروبا كثيرة.[3] وخالد بن الوليد رضي الله عنه قد قضى عمره في القتال وليس في جسده موضع درهم لم يصب بطعنة سيف أو رمح، ولكنه عندما حان الأجل سلم روحه على الفراش.[4]

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢٥٦/٣؛ كنـــز العمال للمتقي، ٥٣٦/١٣-٥٣٧.

(٢) أسد الغابة لابن الأثير، ١٣٤/٤-١٣٥؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٢٦٨/٧.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣٦٥/٣.

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٨٣/١.

إنني أسعى لعرض الأمر الآتي:

إن الأجل الذي قدّره الرب الجليل لا يستقدم دقيقة ولا يستأخر. إننا نموت في الوقت الذي عيّنه الرب الجليل. فلا يمكن أن يحدث شيء دون إذنه ﷻ وأمره. فلا نجاة من الموت إذا أقبل ولا اللقاء به قبل أوانه. فالذين تعقبوا الموت لم يظفروا به كما لم ينجوا منه بالفرار منه، ولما كان الموت لا يحل بأحد إلا في وقته المعين فالأفضل أن يموت المرء عزيزاً. فموت المسلم عزيزا يخدم الإسلام ويفيده بمثل فائدة حياته في الأقل. لأن موته عزيزاً يرفرف على رؤوس الذين يأتون من بعده راية ذات عبرة. بل يكون عبرة ودَرساً لكل ناظر إليه. نحن لم ننس سيدنا حمزة ﵁ ولن ننساه أبداً. وكيف ننساه وقد سطر الملائكة الكرام بدمه في السماء: "أسَد الله"، بعد ما قُطّع أوصالا وهو يحارب بين يدي رسول الله. حتى اعتقد أناس وجرّب آخرون أن روحانية سيدنا حمزة -إذا ما استُمد منها- تتمثل لهم وتمدهم في أعمالهم. فذوو الأبصار المفتّحة يمكنهم أن يشاهدوه كل حين. فهو يحضر في أي مكان يذكر اسمه جزاء حسنا لمن ضحى بنفسه في طريق رسول الله ﷺ فهذه المرتبة والشرف السامي يمنح -منذ ذلك الوقت- لكل من ضحى بنفسه ومات عزيزا كريما في سبيل دعوة الإسلام العظيمة التي آمن بها.

الفصل السادس

نماذج من عُشّاق الجهاد

١. سيدنا محمد ﷺ

إن رسولنا الحبيب ﷺ هو أعظم من بعث رسولاً حظي بالألطاف الربانية من البداية إلى النهاية. فهو صاحب لواء الحمد. وهو المخلوق المتميز بالمغفرة لما تقدم من ذنبه وما تأخر. بمعنى أن الله سبحانه كما لم يقدّر له الذنب قبل رسالته لم بقدّر له الذنب أثناء رسالته كذلك. فهو سيد الأنبياء والمرسلين وهو حبيب رب العالمين بل أحب مخلوق عنده فقد أُعطي له كل شيء حتى لم تبق مرتبة دنيوية أو أخروية إلا أُعطيت له.. ومع هذا كان ﷺ له طلب ورغبة، نراها في حديث رواه البخاري ومسلم:

"وَالّذي نَفسُ محمد بيَده لَوَدِدتُ أَنّي أَغزُو في سبيل الله فأُقتَلُ ثم أَغزُو فأُقتَلُ ثم أَغزُو فأُقتَلُ".[١]

هذا هو ما كان يتمناه ويطلبه الرسول ﷺ. تُرى ما حاجة فخر العالمين إلى الشهادة؟ وما الضرورة إلى الرغبة في الشهادة والتوضؤ بدمه الزكي وهو الذي توّج بتاج "لَولاك لَولاك لَما خلقتُ الأفلاك".[٢]

أجل، كان يرغب ويسأل ويطلب لأن الشهادة تحل العقد كلها وتكسب الإنسان في المحكمة الكبرى مراتب رفيعة متميزة. ماهية هذه المراتب نسمعها وندركها منه أيضا:

"عن أنس ابن مالك أن النبي ﷺ قال إذا وقف العباد للحساب جاء قوم واضعي سيوفهم على رقابهم دما فازدحموا على باب الجنة فقيل مَن هؤلاء

---

(١) مسلم، الإمارة، ١٠٣-١٠٦؛ البخاري، الإيمان ٢٦؛ النسائي، الجهاد ١٨-٣٠.

(٢) تكلم علماء محققون حول هذا الحديث، فمنهم من أقره ومنهم من ضعفه، ولعل قول علي القاري في شرح الشفا (٦/١) يعدّ خلاصة جيدة، حيث يقول:" إنه صحيح معنى ولو ضعف مبنى".

قيل الشهداء كانوا أحياء مرزقين"[1] وعندما يقول الرسول ﷺ: "لوَدِدْتُ أنى أُقتل في سبيل الله ثم أُحيا.." يلفت الأنظار الى هذه النقطة. فإن بين الأنبياء الكثيرين ممن جاهدوا في سبيل الله ولبسوا لباس الحرب فأُكرموا بالشهادة فضلا عن النبوة. وإذا ما نظرنا إلى الرسول ﷺ بهذا المنظار فكلنا نعلم كيف أن امرأة يهودية في خيبر دعت الرسول ﷺ إلى وليمة دسّت فيها السمّ فأصاب منه ذلك السمَّ.[2] ولدى بعض مؤرخي التاريخ الإسلامي أنه توفي من أثر ذلك السم. وهذا يعني –من ناحية– الشهادة. أي أن الرسول الحبيب قد توفي شهيدا. إلا أنه كان يريد أن يستشهد خلف السرايا ولكن الله سبحانه قد وعد بعصمته من الناس لئلا تتفرق الأمة المحمدية. أي إنه تعالى قد استجاب سؤاله ﷺ للشهادة أيضا بشكل آخر.

٢. سيدنا عمر رضي الله عنه

كل ذي عقل يتمنى الشهادة نتيجة النضال والمجاهدة. فسيّدنا عمر رضي الله عنه من هؤلاء. فقد ارتقى منبر رسول الله في المسجد النبوي بعد أبي بكر الصديق وخطب بالناس تحت مشاهدة روحانية الرسول ﷺ طوال عشر سنوات. أقول تحت مشاهدة روحانية الرسول ﷺ لأن الرسول ﷺ لم يمت في نظر عمر. بل بدّل غرفة بغرفة. أي انسحب من غرفة عائشة رضي الله عنها[3] إلى غرفة السعادة والنور تحت الأرض ويرى من خلفه من عالم البرزخ وعالم المثال.

وفي خطبة ذكر سيدنا عمر رضي الله عنه جنة عدن، واصفًا سعَتها وأبوابها وأول من يدخلها الأنبياء، ثم أعقب كلامه مباشرة بنظرة لطيفة إلى قبر الرسول ﷺ مع انحناءة احترام وتوقير قائلاً: "هنيئا لك يا صاحب القبر" ثم استمر في ذكر

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي، ٤١١/١٠؛ الترغيب والترهيب للمنذري، ٣١٨/٢.

(٢) انظر: أبو داود، الديات ٦.

(٣) أحمد بن حنبل، المسند ٨٩/٦؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢٢٩/٢.

الداخلين إلى جنة عدن وهم "الصدّيقون" وكذا بالتفاتة لطيفة وانحناءة احترام وتوقير توجه بها إلى قبر أبي بكر الصديق قائلا:"هنيئا لك يا صاحب هذا القبر". ثم قال: يدخل جنة عدن من بعدهم الشهداء، ولعله تذكر الشهادة التي بشره بها الرسول ﷺ بالشهادة عندما كانوا معه على أُحد بقوله: "اثْبُتْ أُحُدُ فَما عليك إلاّ نَبِيٌّ أَو صِدّيقٌ أَو شَهِيدانِ"[1] ولعله تذكر ذلك اليوم المبشّر به فسكت هنيهة.. والجميع يرقبون ما ستتحرك به شفتا عمر ﷺ من كلام. فقال لنفسه متذمرا: "أين الشهادة منك يا عمر؟" أي هل ستظفر بها؟ أو ما شابه من هذا الكلام. ثم توقف مرة أخرى وباشر كلامه: "إن الله الذي هداك إلى الإسلام ووهبك الهجرة وجعلك من أصحاب النبي ورزقك العيش في المدينة يجعل الشهادة من نصيبك أيضا"[2] كان هذا حلم سيدنا عمر ﷺ أي أنْ يُرزق الشهادة. وهو الذي قال الرسول الكريم ﷺ بحقه: "لَو كان بَعدي نَبِيٌّ لَكان عُمَرَ بنَ الخطّابِ"[3] وهو الذي ارتشف بالدرجة التالية من رحيق العلم اللدنّي الذي ارتشف منه الرسول ﷺ بالدرجة الأولى. وهو نموذج رفيع لا يضاهى للأمة. ومع كل هذا كان يرغب في أن يرصع بالشهادة تاج المجاهدة والجهاد الذي وضعه على رأسه.

ولا نعلم المدة الزمنية بين خطبته هذه وبين الطعنة التي نالها وهو يؤم المسلمين فطرحته أرضاً في الصلاة مضرجاً بدمه. لا يذكر لنا التاريخ عن هذا شيئا جازما. ولربما كان عمر ﷺ في غضون إيراده تلك الخطبة يعيش أيامه الأخيرة وكان يتمنى الموت ضمنا ويرغب فيه. فلقد بلغ به فراق الرسول الكريم والصدّيق حدًّا لا يطاق، فكان يدعو مراراً وبإلحاح: "اللّهم ارْزُقني شَهادةً في سَبيلك وَاجعَلْ مَوتي في بلَد رَسولك ﷺ".[4] يدعو بهذا

---

(١) البخاري، فضائل أصحاب النبي ٦؛ أبو داود، السنة ٨.

(٢) انظر: مجمع الزوائد للهيثمي، ٥٤/٩؛ كنـــز العمال للهندي، ٦٤٥/١٤.

(٣) الترمذي، المناقب ١٨؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٦٨/٩.

(٤) البخاري، فضائل المدينة (الحج) ١٢؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣٣١/٣؛ حلية الأولياء لأبي يعيم، ٥٣/١.

الدعاء ويتضرع إلى ربه ويبكي والمسلمون وراءه يبكون. وقد استجاب الله سبحانه دعاءه في إحدى صلواته فطُعن فأُكرم عمر ﷺ بالشهادة.[1]

وفي الحقيقة أننا لو أدركنا مدى أهمية دَمعتين وقطرتين تسكبان في سبيل الله شوقا إلى العالم الآخر عند مليك مقتدر لرغبنا في اقتناص تلك الحالة بألف شوق وشوق، ورَفَّت لها أجنحة أرواحنا كرفيف أجنحة الحمام. ومعلوم أن هذا أيضا مرتبط بدرجة الإيمان والإذعان.

يقول الرسول ﷺ فيما يخص هذا الموضوع:

"عَينان لا تَمسُّهما النارُ، عَينٌ بَكَت من خَشيَة الله وعَينٌ بَاتَت تَحرُسُ في سبيل الله".[2]

أجل إن الله ﷻ يحب هاتين القطرتين إلى هذا الحد. فالذي يربط محبته بما يحبه الله ويرضاه ويعدّ نفسه لهذا السبيل لا يرغب في شيء من ملذات هذه الحياة الدنيوية ويعزف عن أذواقها الظاهرية. فلا يتذلل أمام مغريات الدنيا، بل يتأهب للعقبى بمشاعره ولطائفه كلها. ومن المعلوم أن هذه الأمور منوطة ببلوغ الإنسان درجة العرفان. وذلك أمر ليس بالسهل واليسير بل هو من أصعب الأمور وأشقّها. فالعرفان كما نفهمه هو اشتعال شعلة الإيمان في داخل الإنسان حتى يرى بنور الإيمان العقبى كما يرى الدنيا. فيشاهد ويطالع ما في العقبى كما يشاهد ويطالع ما في الدنيا. وعندها يتولد في داخل الإنسان شوق عارم إلى الآخرة لا يفضل أي عاقل أي شيء كان على المجاهدة في سبيل الله ولا على الشهادة في ذلك السبيل. فكيف يميل إلى هذه الدنيا الفانية الفاسدة من شاهد الجميل السرمديّ والجمال الأبدي؟.

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير، ١٧٨/٤؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣٥٤/٣.

(٢) الترمذي، فضائل الجهاد ١٢؛ كنـــز العمال للهندي، ١٤١/٣.

٣. عمرو بن جموح ﷺ – سعد بن خَيثمة ﷺ

الشهادة ضمان الظفر بالخلود. وكان عمرو بن جَموح وسعد بن خَيثمة من الذين ظفروا في عصر النور بهذا الضمان. كانا طريحي الفراش لا طاقة لهما على السير إلا بالاعتماد على العصا. ولكن ما إن سمعا نداء الجهاد إلا وانتفضا من موضعهما انتفاضة الأسد الجريح وتأهبا للجهاد. خاطب كل منهما أولادهما وأحفادهما قائلا: "لو كان الأمر شيئاً غير الجهاد لفضّلتُكم على نفسي ولكن الأمر أمر الشهادة ولقاء الله جلّ وعلا والفوز بالجنة الخالدة. في هذا لا يفضّل أحد غيره على نفسه" وذلك عندما قالوا لكل منهما: "أنت مريض طريح الفراش فقد بلغت من العمر عتيّا، دعنا نخرج عنك للجهاد". فهذا الحوار جرى في بيتين مختلفين وبين متحاورين مختلفين، ولكن يكاد يكون المعنى واحداً. مع أنه لا علم لأحدهما بالآخر. واحتكما معاً إلى الرسول ﷺ، اشتكى الشيخان من الشباب قائلَين "إن أولادي وأحفادي لا يدعاني أرزق الشهادة أو أضحّي بروحي في سبيلك". ومهما حاول الرسول تهدئتهما إلا أنهما كانا قد سددا نظرَيهما إلى الجنة فاضطر الرسول ﷺ في النهاية إلى القول "نعم"، وهكذا يشترك الشيخان في الجهاد. وبعد ذلك يقول الرسول محدقا ببصره إلى العالم العلوي: "أرى عمرو بن جموح يركض في الجنة وقد سلمت رجله". ووجدا طريحين ظهرا بظهر معا على الأرض.[١] أجل لقد استشهد سعد بن خَيثمة وعمرو بن جموح في سبيل الله. والشاهد على هذا ربُّ العزة وسيد المرسلين والملائكة الكرام. فهم شهود جميعاً على أنهما قد ضمِنا الجنة.

وغيرهما يمكن أن يعيشوا بالرغبة نفسها وهم مازالوا في الدنيا، يعيشون والموت والاستشهاد أسمى غايتهم. ولكن كما ذكرنا من قبل أن هذا الأمر مرتبط بالعرفان واتباع الواصلين. فالبكاءُ هنا ينقلب هناك إلى ضحك

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي، ٣١/٩؛ أسد الغابة لابن الأثير، ٢٠٨/٤؛ أحمد بن حنبل، المسند ٢٩٩/٥.

وسرور، والقلقُ والمعاناة إلى الانغماس في الأذواق واللذائذ، والضيقُ والحرمان إلى مفارقة كل ضيق وحرمان. فعلى المرء أن يدرك هذا جيّدا ويلقّن نفسه هذه الحقائق دائما. ولهذا فالتنقيب عن وقائع ماضينا سيكون نافعا جدا. وقد أتت إلينا دعوة الإسلام العظيمة منذ الرعيل الأول إلى الآن بهذا الشعور وعلى هذه الشاكلة.

نعم إن التضحية بالنفس كانت عندهم رغبةً وعشقاً وتوقاً وهياماً مع أنهم كانوا بشَراً مثلنا وكانوا يحبّون الحياة. ولكن الذي دفعهم إلى هذا السبيل حقيقة أخرى. ولا يمكن إيضاح هذه الحقيقة إلا إذا عرفنا أنهم بلغوا العرفان. والقرآن الكريم يغرز فينا هذا العرفان ويعلن أنه لا يلحق المجاهدين في مثوبتهم إلا من عمل بمثل عملهم ومن اقتدى بهم في جهادهم وأنهم ليسوا أمواتا قطعا بل أحياء عند ربهم بحياة لا ندركها نحن ولا يدركها إلا من بلغها.

٤. جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه

الشهادة دليل عزة المؤمن. والشهيد يرى من العزة والإكرام في الآخرة ما لضيف عزيز مكرم. وما رآه جعفر بن أبي طالب من الإكرام هو المثال الأنموذج.

لقد حارب جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ببطولة فائقة في "مؤتة". حتى يقول الذين كانوا يراقبونه أنه لم يلتفت إلى الوراء ولا مرة واحدة. ولما أصبحت فرَسه تعيق مبارزته وتعرقل اندفاعه، تركها فورا ونــزل من ظهرها وقطع قوادمها بالسيف وانطلق راجلا يخوض المعمعة ويقابل الموت بصدر رحب وجنان جريء.. حتى فقد ذراعيه واستشهد.[1] وقال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في

---

(١) انظر: أبو داود، الجهاد ٥٩؛ أسد الغابة لابن الأثير، ٣٤٣/١.

مجلس يضمّ ابنه عبد الله ليسري عنه: "رأَيتُ جَعفَرًا يَطيرُ في الجنّة مع الملائكة".[1]

أجل لقد حظي جعفر ﷺ بنعمة الطيَران مع الملائكة. منسلخا من أوهاق البشرية فأصبح كالملك.

٥. أبو عَقيل ﷺ

أبو عقيل ﷺ أسطورة بحدّ ذاته. شهد بدراً، وبعدها شارك في جميع الغزوات مع رسول الله ﷺ. ولكنه لم يظفر بما كان يتُوق إليه ويبحث عنه. وما نال ما يبغيه إلا في اليمامة، في الحرب الضروس مع مسَيلمة الكذّاب. فكانت اليمامة آخر يومه في الدنيا... وفي الحقيقة إن هذا اليوم الأخير جدير بأن يطلق عليه يوم الخلود. فلَقد دبج أبو عَقيل بدمه في ذلك اليوم قصيدة عصماء لا يقدر على مثلها أحد من الشعراء. لنستمع الآن إلى الحادثة من ابن عمر:

لما كان يوم اليمامة واصطفّ الناس للقتال كان أول الناس جرحاً أبو عقيل الأنيفي ﷺ رمي بسهم فوقع بين منكبيه وفؤاده فشطب في غير مقتل فأخرج السهم ووهن له شقه الأيسر لما كان فيه وهذا أول النهار وجر إلى الرحل فلما حمي القتال وانهزم المسلمون وجازوا رحالهم وأبو عقيل واهن من جرحه سمع معن بن عدي ﷺ يصيح بالأنصار "الله الله، والكرة على عدوكم" وأعنق مَعن يقدم القوم وذلك حين صاحت الأنصار "أخلصونا أخلصونا" فأخلصوا رجلا رجلا يميزون. قال عبد الله بن عمر فنهض أبو عقيل قومه فقلت ما تريد يا أبا عقيل ما فيك قتال قال قد نوّه المنادي باسمي قال بن عمر فقلت إنما يقول يا للأنصار لا يعني الجرحى، قال أبو عقيل أنا

---

(١) الترمذي، المناقب ٢٩؛ المغازي للواقدي، ٧٦٧/٢.

رجل من الأنصار وأنا أجيبه ولو حبْوًا. قال بن عمر فتحزم أبو عقيل وآخذ السيف بيده اليمنى مجردا ثم جعل ينادي "يا للأنصار كرة كيوم حنين" فاجتمعوا رحمهم الله جميعا يقدمون المسلمين دربة دون عدوهم حتى أقحموا عدوهم الحديقة فاختلطوا واختلفت السيوف بيننا وبينهم. قال بن عمر فنظرت إلى أبي عقيل وقد قطعت يده المجروحة من المنكب فوقع على الأرض وبه من الجراح أربعة عشر جرحا كلها قد خلصت إلى مقتل وقتل عدو الله مسَيلمة. قال بن عمر: فوقعت على أبي عقيل وهو صريع بآخر رمق فقلت "أبا عقيل!" فقال "لبيك" بلسان ملتاث: "لمن الدبرة" قال قلت: "أَبْشر!" ورفعت صوتي "قد قتل عدو الله". فرفع إصبعه إلى السماء يحمد الله، ومات يرحمه الله. قال بن عمر فأخبرت عمر بعد أن قدّمتُ خبَره كله، فقال: "ما زال يسأل الشهادة ويطلبها".(١)

٦. عبد الله بن عمرو رضي الله عنه

هو والد جابر، حضر جابر إلى رسول الله ﷺ وقال: "توفي والدي وخلف أيتاما كثيرين عقبه، علي أن أتكفلهم ولا أملك ما يعيشهم". فحضر رسول الله ﷺ بيته ليسري عنه. وكانت ابنة جابر أو أخته في غرفة مجاورة تئنّ أنينا حزينا يُسمع الرسول ﷺ:

"جابر بن عبد الله يقول: لَمّا قُتل عبدُ الله بنُ عَمرِو بنِ حَرامٍ يَومَ أُحُد قال رسولُ الله ﷺ يا جابرُ أَلا أُخبرُك ما قالَ الله عزّ وجلّ لأَبيكَ؟ قلتُ: بلَى. قال: ما كَلّمَ اللهُ أَحدًا إلاّ مِن وراءِ حجابٍ وكَلّم أباك كفاحًا فقال: يا عَبدي تَمَنَّ عليَّ أُعطِكَ. قال: يا رَبِّ تُحَيِيني فأُقتَلُ فيكَ ثانيَةً. قال: إنّه سبَقَ منِّي "أنّهم إلَيها لا يُرجَعونَ". قال: يا رَبِّ فَأَبلِغْ مَن وَرائي. فأَنزَلَ اللهُ

---

(١) حياة الصحابة للكاندهلوي، ٨٠٣/١؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٤٧٤/٣-٤٧٥.

عزّ وجلّ هذه الآيةَ ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ الآيةَ كُلّها".[1]

٧. حَرام بن ملحان رضي الله عنه

لا أعلم هل هناك من يجهل بطولات بئر معونة؟ فلقد أرسل الرسول ﷺ من القرّاء إلى قبيلة عمرو بن طفيل للدعوة والإرشاد، وكان بينهم حرام بن ملحان رضي الله عنه وهو خال سيدنا أنس رضي الله عنه وشقيق أمّ سُلَيم رضي الله عنها. كان واحدا ممن عشق رسول الله إلى حدّ الولـــه. وحينما اقتربوا إلى القبيلة خاطب من معه: "لأذهب أنا وتخفوا أنتم هاهنا فإن أنصتوا لما أقول تأتون من بعدي وإن أصابوني بشي تنجون" ورضي الآخرون بهذا الرأي.

وهكذا بلغ قبيلة عمرو بن طفيل، فتظاهروا كأنهم ينصتون إليه. وما أن أوضح لهم الحق وبسط الحقائق إلا وقطّعوه بالرماح إربا إربا وطرحوه أرضا غارقا في بحر من الدماء. بيد أنه حظي بنور الآية الكريمة التي سيحظى به كل فرد في الآخرة وهي: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(ق:٢٢) فكان بصره يرنو إلى جنات النعيم، إذ قال "اللهُ أكبرُ فُزتُ وربِّ الكَعبة". إلا أن الكفار لم يكتفوا بقتله فحسب بل قتلوا أيضا كل من كان معه من الصحابة الكرام. كان الرسول ﷺ وقتئذ في المسجد مع أصحابه فأجهش بالبكاء.

"عن أنَسِ بنِ مالك قال: جاءَ ناسٌ إلى النبي ﷺ فقالوا: أن ابعَث معنا رِجالاً يعَلّمونا القرآنَ والسّنّةَ. فبَعثَ إلَيهم سَبعِينَ رجُلاً من الأَنصار يُقال لهم القُرّاءُ فِيهم خالي حَرامٌ، يَقرءون القرآنَ ويَتَدارسون باللّيل يتعَلَّمون، وكانوا بالنّهار يَجيئُونَ بالماء فيَضَعونه في المَسجد ويَحتَطبون فيَبيعونه ويَشترون به الطعامَ لأَهلِ الصُّفّة ولِلفُقَراء، فبَعثَهم النبي ﷺ إليهم فعَرَضوا

---

(١) ابن ماجه، الجهاد ١٦؛ الترمذي، التفسير ١٨/٣؛ دلائل النبوة للبيهقي، ٢٩٨/٣؛ أسد الغابة لابن الأثير، ٣٤/٣.

لَهم فقَتلوهم قَبل أنْ يَبلُغوا المكان فقالوا: اللهم بَلِّغ عَنّا نَبيَّنا أنّا قَد لَقيناك فرَضينا عَنكَ ورَضيتَ عَنّا. قال وأَتَى رجُلٌ حَرامًا (خالَ أنَسٍ) مِن خَلفه فطَعَنَه برُمحٍ حتى أَنفَذَه فقال حَرامٌ: فُزتُ ورَبِّ الكعبة. فقال رسول الله ﷺ لأَصحابِه: إنّ إخوانَكم قَد قُتلوا وإنّهم قالوا: اللهم بَلِّغ عَنّا نَبيَّنا أنّا قَد لَقيناك فرَضينا عَنك ورَضيتَ عَنّا".[1] وباشر الرسول ﷺ بعد هذه الحادثة بقراءة دعاء القنوت في الصلاة كل يوم ودعا على أولئك القتَلة[2] وقد سمح الله جل وعلا لهذا الدعاء فترة من الزمن حتى نــزلت الآية الكريمة ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾(آل عمران:١٢٨) أي أن هذا الأمر يخصّ الله سبحانه. فهو الذي يتخذ منكم شهداء ويجعلهم أعزاء مكرمين، ويذل الكافر بعذاب خالد في نار جهنم. فالله يمهل ولا يهمل. إذ يعطي الكافر فرصة بالإمهال ولكن إذا ما أخذه لا يفلته.[3] وكم من جبار قصم الله ظهره، وكم من ظالم أخذه أخذ عزيز مقتدر، وكم من فرعون دمّر الله قصوره على رأسه، وكم منهم من أغرقهم، وكم منهم من أنــزل عليهم حجارة من السماء، وكم منهم من تركهم تحت النيران -كما في بومبي- وما نجا جسد بعضهم إلا ليكونوا عبرة لمن خلفهم. أجل، فالله يمهل ولا يهمل. والله حليم ولكن عذابه أليم.

فالذين أراقوا دماء المسلمين في بئر معونة صاروا حطب جهنم كلهم إلا من دخل في الإسلام. أما الذين استشهدوا هناك فاصبحوا في جنات النعيم. فلئن لم يكن هذا عزا وكرامة فما هو إذن؟

٨. سيدنا حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه

أيمكن ألا يُذكر سيد الشهداء وأسَد الله حمزة إذا ما ذُكر الشهيد؟

---

(١) أحمد بن حنبل، المسند ٢٧٠/٣؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٥١٤/٣.

(٢) انظر: مسلم، الإمارة ١٤٧؛ البخاري، المغازي ٢٨؛ البداية لابن كثير، ٧١/٤-٧٢.

(٣) انظر: سورة المزمل:١١-١٣.

عندما خاض حمزة ﵁ معركة أُحد الحاسمة استشهد شهادة تليق به. لم يحظ شهيد ولا مجاهد بالبطولة والشجاعة بمثل ما حظي به حمزة ﵁. فقد قتل في ذلك اليوم ثلاثة وثلاثين كافرا ثم استشهد حسب ما يورده المؤرّخون. بمعنى أنه قتل ما يقارب نصف قتلى المشركين قبل أن يقطّع جسده أوصالا. كانت صفيّة أخته تبكي على نعشه المبارك وفي الوقت نفسه ربما كانت تسعى لجمع أوصال جسده. كانت شهادة حمزة تثير أشجان رسول الله ﷺ من جهة ومن جهة أخرى يثيره بكاء عمّته صفيّة أم الزبَير. لم يبق أحد من المسلمين لم يجرح في ذلك اليوم، زد على ذلك تسعة وستين شهيداً. وعندما رجعوا إلى المدينة كان كلٌّ يبكي على أقاربه. بكاء على الشهداء وبكاء على الجرحى وبكاء على من مات في بيته من أثر الجرح. ولكن غُفل عن واحد منهم في هذا الهياج والعويل المتصاعد فلم يُذرف الدمع عليه. نعم إنه سيد الشهداء. فهذا المنظر آلم رسول الله ﷺ كثيراً فقال بقلب منكسر حزين "لَكِنّ حَمزَةَ لا بَوَاكِيَ له".[1] وما أنْ سمع سعد بن معاذ ﵁ هذا حتى جمع نساء الأنصار إلى باب بيت حمزة قال لهن: "ابكوا لحمزة ثم لـــمَوتاكم". ثم أصبحت هذه عادة جارية مدة ثم انقطعت. ولو أن المسلمين بكَوا لحمزة ﵁ قبل بكائهم لموتاهم إلى يوم القيامة، لَما أوفوا حقّ أسد الله حمزة ﵁...[2]

٩. عبد الله بن جحش ﵁

وعبد الله بن جحش أيضاً من عشاق الشهادة. فقد اقتحم صفوف العدو يوم أُحد لما رأى علائم الهزيمة في صفوف المسلمين وبدا التشتت فيها. عبد

---

(١) ابن ماجه، الجنائز ٥٣؛ المسند للإمام أحمد، ٤٠/٢.

(٢) انظر: ابن ماجه، الجنائز ٥٣؛ أحمد بن حنبل، المسند ٤٠/٢؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٧/٣-١٨؛ أسد الغابة لابن الأثير، ٥٣/٢.

الله بن جحش ﷺ وسعد بن أبي وقّاص أبناء أخوال. وتقابلا عندما اشتدّ الكرب وحمي الوطيس. يقول سعد بن أبي وقّاص ﷺ:

"قال عبد الله بن جحش يوم أُحد: ألا تأتي ندعو الله؟ فخلينا في ناحية فدعوت: "اللهم إذا لقيتُ العدوّ غداً فلقّني رجلاً شديداً بأسه، شديداً حَرَده فأقتله فيك وآخذ سلبه." فأمّن عبد الله بن جحش، ثم قال عبد الله: "اللهم ارزقني غداً رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرده، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يقتلني ويأخذني فيجدع أنفي وأذنيّ، فإذا لقيتك قلتَ: يا عبد الله! فيمَ جُدع أنفك وأذناك؟ فأقول: فيك وفي رسولك. فيقول: صدقتَ." قال سعد: كانت دعوة عبد الله خيراً من دعوتي، فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنيه معلقان في خيط."[١]

---

(١) انظر إلى: أسد الغابة لابن الأثير، ١٩٥/٣؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٣٠١/٩.

النتيجة

الموت الشريف.. يفضّله المؤمن الحق على العيش الذليل... الموت العزيز أفضل بألف مرة من العيش في عقر الدار في قلق واضطراب خوفا من تسلّط الظلمة علينا. هو هكذا إذا استغرق في بحر العرفان الربانيّ، ذلك المسلم العزيز الكريم. ولا يدرك هذا المعنى من يعيش حياة المقابر ميتا في الحياة.

وفي الحقيقة إنه من الصعوبة بمكان أن تتطهّر ذنوبنا بشكل آخر. إن الإنسان يعيش مرة ليكسب السعادة في الآخرة. والحال إن حياتنا تمضي غارقة بالذنوب. فكم مرة يقترف النظر الحرام شاب يجول في الأسواق ويجوب الشوارع، وكم مرة يموت كل يوم.. كم مرة ينغمس في القاذورات، كم مرة يغرق في الأوحال، كم مرة يُنـــزل الحرام إلى معِدته، بل كم مرة يركع ويسجد أمام الحرام، كم مرة يعصي ربَّه الجليل، كم مرة يهمل توقير الرسول الحبيب ﷺ، بل كم مرة ينحط إلى الكفر بإنكاره القرآن الكريم... فلا ضمان لتطهير هذه الأجساد المليئة بالآثام إلا طريق الشهادة... البقاء في هذا الشعور والفكر، واغتنام الفرصة متى سنحت والإمساك بها، والسعي للفوز بذلك الموقع المعَلّى مضطربا اضطراب أبي عَقيل رضي الله عنه... نعم إن هذا هو أسمى غاية لكل من حمل أمانة دعوة الإسلام العظيمة وينبغي أن يكون هذا. فالشهادة هي غايتنا ومطلوبنا وعشقنا...

إن أفضل ما يعمله مَن أمضى حياته بالصالحات من الأعمال في منظومة من الشعر الرقيق، أن يختمها بقافية الشهادة. وعندها تكسب الحياة قيمة أعظم وأغلى فتتفتّح في رياض الجنة إلى ما شاء الله أن تتفتح عن ذخائر مباركة، ألا يكافأ في الجنة على كل عمل من الصالحات. فالجنة وجهنم

حَوضان ومخزنان تجمعان أعمال الإنسان، فيتجمع الخير والطيّب منها في الجنة والشر والخبث في جهنم. ومن هذه الجهة فنحن بمثابة من ينسج الجنة وجهنم ويحيكهما خيطاً خيطاً.

إن تاج الأعمال الصالحة هو الشهادة بلا شك. والشهادة هي تسليم من نذر حياته في سبيل الله، وروحه إلى الله على بصيرة وعلم. لأن بصره قد تفتّح في الدنيا فشاهد ما وراء الدنيا ولّما يزل فيها. وقد اجتنى الشهيد ثمرات الجنة لنذر حياته لله. ومن هذه الناحية فهو المحظوظ المختار من بين الناس.

إن من يريد أن يأخذ حظًّا كاملاً من حياة مباركة طيبة عليه أن يقطّر عليها قطرات من الدم في سبيل الله ويكون شهيدا، كي يظفر بمطلوبه بأفضل ما يمكن. فالحياة التي لا تختم بالشهادة تترك فجوات مهما كانت معمورة بصالح الأعمال. أما الحياة التي أخذت نصيبها من الشهادة بشكل من الأشكال فليس فيها فراغ ولا فجوة فهي كالقصيدة التي اكتملت بقافيتها إلى آخر بيت. ففيها الانسجام والنظام والمحبة. الشهادة مفتاح ذو أسرار، تفتح أبواب الرحمة للسماوات والأرضين على مصاريعها. حيث يمضي الشهيد دون حساب في المواضع التي يحاسب فيها حتى الأنبياء متوجها إلى ما أعد له من العوالم. الشهيد له حصانة. فلباسه الملطّخ بالدم يمنحه الامتياز في المرور.

لقد حرص كل مؤمن بالله على الشهادة ختاما لحياته، في جميع المعارك الحاسمة والكفاح المستميت والحركات النضالية الجادة التي مرت في جميع الأدوار. ذلك لأن الله سبحانه يرضى عن أمثال هؤلاء من عباده، كما ذكر في حديث الرسول الكريم ﷺ: "عن عَبد الله بنِ مَسعُود قال: قال رسولُ الله ﷺ عَجبَ رَبُّنا عزّ وجلّ من رَجُلٍ غَزَا في سَبيلِ الله فَانْهَزمَ -يَعني أَصْحَابَهُ- فعَلِم ما علَيه فرَجَع حتى أُهَرِيقَ دمُه فيَقُولُ الله تعالى لملائكته: انْظُرُوا إلى عَبدي رجَع رَغبَةً فِيما عِندِي وشَفَقَةً مِمّا عِندي حتى أُهَرِيقَ دَمُهُ".[1]

(١) أبو داود، الجهاد ٣٨.

فهرس

الفصل الأول حَولَ مَفهُومِ الْجِهَاد

الفصل الثاني وظائف الجهاد

الفصل الثالث علاقة الجهاد – المُؤمِن – الكَون

الفصل الرابع مُكتسَبات الجهاد

الفصل الخامس عَوائق الجِهاد

الفصل السادس نماذج من عُشّاق الجهاد

صدر للمؤلف الكتب الآتية باللغة العربية

١. النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية (مجلدان)

٢. سلسلة النور الخالد (٧ أجزاء)

٣. القدر في ضوء الكتاب والسنة

٤. أسئلة العصر المحيّرة

٥. روح الجهاد وحقيقته في الإسلام

٦. طرق الإرشاد في الفكر والحياة

٧. أضواء قرآنية في سماء الوجدان

٨. الموازين أو أضواء على الطريق

٩. ترانيم روح وأشجان قلب

١٠. ونحن نقيم صرح الروح

١١. حقيقة الخلق ونظرية التطور

١٢. التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح

www.ar.fgulen.com